

اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي

• معهد الاقتصاد •



مُوجَز

الاقتصاد السياسي



أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي

• معهد الاقتصاد •

موجز

الاقتصاد السياسي



صدر هذا الكتاب باللغة الروسية بعنوان :

POLITITCHESKAIA EKONOMIIA (Outchebnik)

Gossoudarstvennoié Izdatelstvo polititcheskoi litératoury

Moscva 1958

جميع الحقوق محفوظة للدار - الطبعة الأولى - ١٩٥٩

نقل موجز الاقتصاد السياسي الى العربية عن الطبعة الفرنسية المترجمة عن الطبعة الروسية الثانية . وعندما اصبح جاهزا للطبع ، صدرت في الاتحاد السوفيافي الطبعة الثالثة لهذا المؤلف . فاوقف نشر النسخة العربية ، ريثما يتم تدقيقها على اساس الطبعة الروسية الثالثة ، المزيدة والمنقحة . ويحتوي هذا الكتاب الذي نصبه بين ايدي القراء العرب ، الفصول الاربعة الاولى من موجز الاقتصاد السياسي .

ان الفصل الاول الذي كان يشكل مدخل الطبعة الثانية قد دفع على اساس الطبعة الثالثة . اما الفصول ! الثاني والثالث والرابع فقد بقيت على حالها تماما كما كانت في الطبعة الثانية ، ولم يجر فيها اي تبديل . وهذه الفصول الثلاثة قد دمجت وجعلت فصلا واحدا في الطبعة الثالثة . وقد رأينا نحن ابقاءها كما كانت عليه لما في ذلك منفائدة للقاريء العربي ، اذ ان هذه الفصول تحتوي دراسة واسعة وعميقة للنظم الاقتصادية السابقة للرأسمالية . ولاطلاع القاريء العربي على التعديلات الهامة التي طرأت على موجز الاقتصاد السياسي في طبعته الثالثة ، نشرنا مقدمة الطبعة الثالثة في هذه النسخة العربية .

دار النشر

مقدمة الطبعة الثالثة

في الفترة التي انقضت بعد صدور الطبعة الثانية من كتاب الاقتصاد السياسي، تطور الانتاج الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي وبلدان الديمقراطية الشعبية ، تطورا مستمرا ، في طريق النهوض الصاعد ، وأتقنت القيادة القائمة على البرمجة للاقتصاد الشعبي ، وتحسنت اساليب ادارة الاقتصاد ، وانطلقت المبادرة الخلاقة للجماهير .

اما في معسكر الرأسمالية ، فقد استمر تعمق الازمة العامة للرأسمالية ، وانهيار النظام الاستعماري ، وتفاقم التناقضات الداخلية والخارجية .

ووضعت قرارات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي واجتماعات الهيئة الكاملة للجنة المركزية للحزب التي تلت المؤتمر ، مهام جديدة ، مفعمة بالمسؤولية ، امام العلوم الاجتماعية ، وعلى الاخص ، امام علم الاقتصاد . واشير في تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي امام المؤتمر العشرين للحزب ، الى ان الناحية الاقتصادية من النظرية الماركسية تحتل المرتبة الاولى في المرحلة الحاضرة من البناء الشيوعي .

وتقوم امام الاقتصاديين وجميع العاملين في الجبهة الفكرية مهام التغلب التام على عواقب تقدس الفرد ، والصياغة الخلاقة لجملة من قضايا الاقتصاد الاشتراكي الجديدة التي تضعها الحياة ، وترتب عليهم مهمة شديد النضال ضد الايديولوجية البورجوازية ، وضد جميع محاولات تحريف الماركسية - اللينينية ، بوصفها الخطر الرئيسي في المرحلة الحالية ، وضد الجمود الفقائد والطريقة المدرسية .

وقد استوجب ذلك كله اعادة النظر ، بصورة اساسية ، في صياغة نصوص كتاب الاقتصاد السياسي ، صياغة جديدة . وتنضمن الطبعة الثالثة المكتاب تحليلًا أوسع للمقضايا المعاصرة ، والقوانين تطور النظمتين العالميين : نظام الاشتراكية ونظام الرأسمالية ، وتعديلات في تركيب الكتاب ، وزيدت الاستشهادات واضيفت إليها وقائع جديدة، وطورت بعض الأفكار وأصبحت ملهمة أكثر ، وبديل ودقيق بعض الصياغات .

ادخلت في تركيب الكتاب التعديلات التالية : خصص الفصل الاول لمادة الاقتصاد السياسي . وجمعت الانظمة السابقة للرأسمالية في فصل واحد ، يشكل تمهيدا تاريخيا لدراسة الاقتصاد السياسي . وجمعت فصول التعاون البسيط والمنيفكتوره والصناعة الضخمة في فصل واحد بعنوان « المراحل الثلاث لتطور الرأسمالية في الصناعة » ويأتي هذا الفصل بعد فصل « القيمة الزائدة » . وألحق فصل « الدخل القومي » بفصل « تجديد انتاج الرأسمال الاجتماعي » . ويجري شرح بناء الاشتراكية في بلدان الديمقراطية الشعبية في الفصل المخصص لمرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . والغى فصل « الاساس المادي والانتاجي للاشتراكية » ، واستخدمت المواد التي يتضمنها هذا الفصل في الفصول الاخرى . ويجرى البحث في صفة القوانين الاقتصادية للاشتراكية والدور الاقتصادي للدولة الاشتراكية مع البحث في مسائل الملكية الاشتراكية . وأفرد فصل مكرس ، من حيث الاساس ، لانتاجية العمل . اما تحديد صفات مبدأ التوزيع حسب العمل ، فيجري بصورة خاصة ، مع تحليل الاجور . ويخصص فصل الزراعة لتحديد صفات اسس النظام الكولخوزي ، وخصائص استخدام المفهومات الاقتصادية للاشتراكية في القطاع الكولخوزي . ودمج فصل « الدخل القومي في الاشتراكية » في فصل « تجديد انتاج الاشتراكي » والغيت الخلاصات التي تلي كل فصل ، لأنها تكرار لتعريف وردت في النص .

ان اكبر التعديلات والاضافات قد ادخلت في تحديد صفات المرحلة المعاصرة لازمة العامة للرأسمالية ، وكذلك ، وبصورة خاصة ، في الجزء الذي يبحث في « الاسلوب الاشتراكي للانتاج » .

عند تحديد صفات المرحلة المعاصرة للازمة العامة للرأسمالية ، يجري تبيان الاهمية الحاسمة لتشكيل نظام الاشتراكيه العالمي وانهيار نظام الحكم الاستعماري ، كما يجري البحث في مسائل التعايش السلمي بين النظمتين وفي مسائل اخرى .

وتتضمن الطبعة الجديدة للكتاب شرحا اوسع لمسألة القوانين العامة والصفات الخاصة للانتقال الى الاشتراكية في البلدان المختلفة ، على اساس تعميم تجربة الاتحاد السوفيياتي وبلدان الديموقراطية الشعبية ، وتبيّن في هذه الطبعة كذلك اهمية توطيد وحدة بلدان المعسكر الاشتراكي باعتباره اهم شرط لنجاح بناء الاشتراكية والشيوعية .

ان مهمة علم الاقتصاد الماركسي - الليبي تقوم على جعل دراسة قوانين الاقتصاد الاشتراكي ومفهوماته مستندة ، بدرجة اكبر دائمًا ، الى تعميم تجربة البناء الاقتصادي في جميع بلدان النظام الاشتراكي العالمي .

واثناء اعداد الطبعة الثالثة للكتاب ، توخي المؤلفون اعطاء تحليل نظري اوسع لقوانين الاقتصادية للاشتراكية وملفوماتها ، ولاشكال ظهورها ولطرق استخدامها ، عمليا ، في القيادة القائمة على البرمجة لل الاقتصاد الاشتراكي . وعلى هذا الاساس ، جرى في الكتاب شرح اوسع للمسائل النظرية المتعلقة بالتطوير اللاحق للمبدأ الليبي بشأن المركزية الديموقراطية في البناء الاقتصادي ، وبخصائص القيادة القائمة على البرمجة لتطوير الانتاج الكولخوزي المبني على الملكية التعاونية - الكولخوزية .

وخصص في الكتاب مكان اكبر بكثير للنظر في قضايا فعل قانون القيمة ، وعلى الاخص ، في ميدان انتاج وسائل الانتاج ، وفي نشاط الكولخوزات الاقتصادي ، ووسائل تعزيز الحساب الاقتصادي ، وتنمية الدوافع المادية لنهوض الانتاج ورفع انتاجية العمل وتخفيض كلفة المنتوج ، وامكانية الاستخدام الامثل لجميع افضليات الاقتصاد الاشتراكي المبرمج من اجل الحل الاربع لمهمة الاتحاد السوفيياتي الاقتصادية الرئيسية ومن اجل بناء الاساس المادي والانتاجي للشيوعية .

وفي اخر الكتاب ، تحدد صفات مجموع النظام الاشتراكي لل الاقتصاد العالمي ، وتحليل قوانين تطور الطراز الجديد من العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين بلدان المعسكر الاشتراكي ، كما

تبحث مسائل المbaraة بين النظامين : نظام الاشتراكية ونظام الرأسمالية .

وقد أسدت مجموعة واسعة من الاقتصاديين، وفيهم المستغلون في العلوم والمدرسون ، ورجال الادارة الاقتصادية ، والدعاة ، مساعدة كبرى في اعداد الطبعة الثالثة من كتاب الاقتصاد السياسي . وفي اعداد الطبعتين السابقتين كذلك .

وقد قدمت ملاحظات انتقادية ثمينة ومقترنات «لموسة» . ترمي الى تحسين الكتاب ، في الاجتماعات التي كرسـت لبحث الطبعة الثانية ، واشترك فيها اقتصاديون عـديدون من اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيـطي ، واكاديمية العـلوم الاجتماعية لدى اللجنة المركزـية للـحزب ، والمدرسة الحـزبية العليا لدى اللجنة المركزـية للـحزب ومن جـامعة الدولة في موسـكو ، ومن معهد الدولة الـاقتصادـي في موسـكو ، ومن مؤسـسة المـنشـورـات السـيـاسـية التـابـعة للـدولـة ، وقد القـراء كذلك في العـدـيد من رسـائلـهم مثل هـذه المـلاحظـات والـمقـترـنـات . وقد اسـدى مـسـاعـدة هـامة ايـضا في هـذا الصـدد ، اقـتصـاديـون اجـانب عـديـدون وـخـصـوصـا من بلـدان الـديمقـراـطـيـة الشـعـبـية ، بما اـيدـوا من مـلاحظـات وـقـدمـوا من اـقتـراحـات .

وقامت باعداد الطبعة الثالثة لكتاب الاقتصاد السياسي
هيئة من المؤلفين اعضاوها : الاكاديمي ك. ف. اوستروفيتيانوف ،
العضو المراسل في اكاديمية علوم الاتحاد السوفيياتي ، ل. أ.
ليونتياف، العضو الفعلي لاكاديمية العلوم الزراعية لكل الاتحاد الحاملة
اسم لينين، اي. د. لابتيف، الدكتوران في العلوم الاقتصادية ، ل.م.
غاتوفسكي و اي. اي. كوزمينوف . واشترك في انتقاء المواد
الاحصائية وتنسيقها العضو المراسل لاكاديمية علوم الاتحاد السوفيياتي
ف. ن. ستاروفسكي .

وتعرب هيئة المؤلفين عن امتنانها لجميع الرفاق الذين ساعدوا على العمل في الكتاب ، بملحوظاتهم الانتقادية واقتراحاتهم . ويرجوا المؤلفون القراء ارسال ارائهم واقتراحاتهم في الطبعة الثالثة للكتاب بالعنوان التالي : موسكو ، فالخونكا ١٤ ، المعهد الاقتصادي لacadémie العلوم في الاتحاد السوفييتي .

المؤلفون

الفصل الأول

مَادَةُ الْاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ

انتاج الخيرات المادية هو اساس حياة المجتمع

الاقتصاد السياسي علم في عداد العلوم الاجتماعية (١) ، يدرس قوانين الانتاج الاجتماعي وتوزيع الخيرات المادية في مختلف المراحل من تطور المجتمع البشري .

يشكل الانتاج المادي اساس حياة المجتمع . فالناس ، لكي يستطيعوا العيش ، ينبغي ان يكون لديهم غذاء وكساء وخيرات مادية اخرى . ولتدارك هذه الخيرات عليهم ان ينتجوها ، أي عليهم ان يعملوا .

ينتج الناس الخيرات المادية ، أي انهم يناضلون ضد الطبيعة ، لا منفردين بل بصورة مشتركة ؛ على شكل جماعات ، على شكل مجتمعات . ولذا يكون الانتاج دائما ، مهما كانت الظروف ،

(١) ان مصطلح (économie Politique) ومعناه الاقتصاد السياسي متحدر من الكلمات اليونانية *aïkonomia* و *politéia* وكلمة *aïkonomia* تتألف هي نفسها من كلمتين : (*aikos*) و معناها المنزل (*nomos*) و معناها ناموس او قانون . و *politéia* تعني التنظيم الاجتماعي . ولم يظهر مصطلح *économie politique* الا في اوائل القرن السابع عشر .

انتاجا اجتماعيا ، ويكون العمل شكلا من اشكال فعالية الانسان
الاجتماعي .

ان انتاج الخيرات المادية يفترض وجود العناصر التالية : ١) عمل
الانسان ، ٢) موضوع العمل ، ٣) وسائل العمل .
والعمل هو نشاط مدرك يقوم به الانسان ، ويحول خللاته
الاشياء التي تقدمها الطبيعة ويستعملها لسد حاجاته .
فالعمل هو ضرورة طبيعية ، هو شرط مطلق لوجود البشر . والحياة
البشرية دون عمل تصبح غير ممكنة .

موضوع العمل هو كل ما يعالجه عمل الانسان . وقد تقدم
الطبيعة مواضيع العمل كالشجرة التي تقطع من الغابة والفلزة التي
تستخرج من الارض . اما مواضيع العمل التي تناولها عمل سابق ،
كالفلزات في معمل التعدين ، والقطن في معمل الفزل ، والخيوط
في المناسج ، فتسنمى **مواد اولية** .

واما **وسائل العمل** فتعني كل الاشياء التي يؤثر الانسان بواسطتها
في موضوع عمله ويحوله : وهي تشمل ، بالدرجة الاولى ، ادوات
الانتاج والارض ومباني الاستثمار والطرق والاقنية المستودعات
الخ . **ولادوات الانتاج** الدور الحاسم بين وسائل العمل . وهي
تشمل الادوات المتنوعة التي يستعملها الانسان في عمله ، من
ادوات البدائيين الحجرية الغليظة الى الآلات الحديثة . ومستوى
تطور ادوات الانتاج هو المقياس لمدى سيطرة المجتمع على الطبيعة ،
هو مقياس تطور الانتاج . ولا تتميز العصور الاقتصادية المختلفة
بما ينتج فيها من خيرات مادية ، بل بالاسلوب الذي تنتجه به هذه
الخيرات وبنوعية ادوات الانتاج .

ان مواضيع العمل ، ووسائل العمل تؤلف **وسائل الانتاج** . وهذه
لا تستطيع ان تبدع شيئا بذاتها ان لم تنضم اليها قوة العمل . ولكي
يصبح في الامكان البدء بعمليّة العمل ، اي انشاء الخيرات
المادية ، ينبغي ان تنضم قوة العمل الى ادوات الانتاج .

ان **قوة العمل** هي القدرة التي يملكها الانسان على العمل ، هي
مجموع القوى الجسمانية والروحية التي يستطيع الانسان بفضلها

ان ينتج خيرات مادية . وقوة العمل هي العنصر النشيط في الانتاج ، فهي التي تنشئ وتحرك وسائل الانتاج . ومع تقدم ادوات الانتاج تنمو عند الانسان القدرة على العمل ، والدرامية ، والحذق ، والخبرة بالانتاج .

القوى المنتجة وعلاقان الانتاج

ان قوى المجتمع المنتجة تتالف : من وسائل الانتاج التي تصنع بواسطتها الخيرات المادية ، ومن الناس الذين يديرون هذه الوسائل وينتجون تلك الخيرات . والجماهير الكادحة هي القوة المنتجة الرئيسية في المجتمع البشري خلال جميع ادوار تطوره . ان القوى المنتجة تعبر عن علاقان الناس بالأشياء وبقوى الطبيعة التي يستعملها الناس لانتاج الخيرات المادية . بيد ان الناس ، خلال الانتاج ، لا يؤثرون في الطبيعة فقط ، بل يؤثرون ايضا بعضهم في بعض .

« انهم لا يستطيعون الانتاج الا اذا اتحدوا على نحو معين للقيام بنشاط مشترك ولتبادل الفعاليات بينهم . ولاجل ان ينتجوا ، يدخلون بعضهم مع بعض في علاقان وروابط معينة . ولا يحصل تأثيرهم في الطبيعة ، ولا يحصل الانتاج ، الا من خلال هذه العلاقات والروابط الاجتماعية » (١) .

ان العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين الناس في سياق انتاج الخيرات المادية تؤلف علاقان الانتاج .

ان علاقان الانتاج تشمل : (آ) اشكال ملكية وسائل الانتاج . (ب) ما ينجم عن ذلك من وضع مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية في الانتاج ، وعلاقاتها فيما بينها . (ج) اشكال توزيع المنتجات .

(١) كارل ماركس : « العمل بالاجرة ورأس المال » . صفحة ٣١ . المنشورات الاجتماعية - باريس ١٩٥٢ .

لا يمكن ان يكون انتاج ما دون ان يكون معه شكل ما من اشكال الملكية، اي دون شكل اجتماعي محدد تاريخيا لتملك الناس الخيرات المادية، ولا سيما وسائل الانتاج . وطبيعة علاقات الانتاج تحددها طبيعة ملكية وسائل الانتاج (الارض، الغابات ، المياه ، بطن الارض ، المواد الاولية ، ادوات الانتاج ، مباني الاستثمار ، وسائل النقل والمواصلات الخ) : فاما ان تكون هذه الملكية لافراد او فئات اجتماعية او طبقات يستعملونها لاستغلال الشغيلة، واما ان تكون لمجتمع هدفه تلبية حاجات الجماهير الشعبية ، المادية والثقافية . ان حالة علاقات الانتاج تدل على كيفية توزيع وسائل الانتاج ، ثم كيفية توزيع الخيرات المادية التي انتجهها الناس، بين افراد المجتمع. وهكذا ، فالشكل المعين الذي ترتديه ملكية وسائل الانتاج هو الذي يؤلف اذن السمة الفاصلة في علاقات الانتاج .

ان شكل ملكية وسائل الانتاج تحدد وضع الناس في نظام الانتاج الاجتماعي والبناء الطبقي للمجتمع . ففي ظروف سيطرة الملكية الفردية الرأسمالية على وسائل الانتاج ، يحرم العمال هذه الوسائل . ولهذا يضطرون للعمل لمصلحة الرأسماليين ، الذين يتملكون منتوج عمل العمال . وبسبب ذلك تتميز علاقات الانتاج في ظل الرأسمالية بوجود تناقضات تنافذية وبنضال طبقي حاد بين الرأسماлиين والعمال ، وبصراع في المزاحمة ما بين الرأسماليين انفسهم من اجل الحصول على اعلى ربع ممكн . اما في ظروف الاشتراكية فتسقط الملكية الجماعية على وسائل الانتاج بشكليها : شكل ملكية الدولة (ملكية الشعب كله) وشكل الملكية الكولخوزية التعاونية . وقد قضي هنا على استثمار الانسان للانسان ويعمل الشغيلة لانفسهم وللمجتمع. ولا تعرف علاقات الانتاج هنا تناقضات تنافذية وتتميز بالتعاون الرفاقي وبالمساعدة المتبادلة الاشتراكية . ان علاقات الانتاج تعين ايضا علاقات التوزيع التي تطابقها .

والتوزيع يشكل حلقة الاتصال بين الانتاج والاستهلاك . وتستعمل المنتجات المصنوعة في المجتمع اما للاستهلاك المنتج واما للاستهلاك الشخصي . و الاستهلاك المفتوح هو استعمال وسائل

الانتاج لا يجاد خيرات مادية . اما الاستهلاك الشخصي فهو يسد حاجة الانسان من الغذاء والملابس والمسكن الخ .

ان توزيع منتجات العمل يتوقف على توزيع وسائل الانتاج .

فاما كانت وسائل الانتاج ملكا للطبقات المستثمرة ، يصبح توزيع منتجات العمل لفرض اثراء المستثمرين ، وضد مصالح الشفيلة . اما اذا كانت وسائل الانتاج تشكل ملكية اجتماعية اشتراكية ، فان منتجات العمل توزع لمصلحة التطوير اللاحق للإنتاج الاشتراكي ، وزيادة الرفاهية المادية للشفيلة ورفع مستواهم الثقافي .

ان توزيع الخيرات المادية في التشكيلات الاجتماعية ذات الانتاج البضاعي يتم عن طريق **تبادل البضائع** .

فالانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك تشكل وحدة يكون فيها الدور الفاصل للانتاج . وأشكال التوزيع والتبادل والاستهلاك المعينة تؤثر بدورها تأثيرا فعالا في الانتاج . فاما ان تساعد على تطوره واما ان تعوق هذا التطور .

تعريف الاقتصاد السياسي

للإنتاج ناحية تكنيكية وناحية اجتماعية . فالعلوم الطبيعية والتكنيكية كالفيزياء والكيمياء وعلم المعادن والميكانيك والزراعة الخ . . . تدرس الناحية التكنيكية ، اما الاقتصاد السياسي فيدرس الناحية الاجتماعية للإنتاج ، العلاقات **الاجتماعية الانتاجية** ، اي **الاقتصادية** بين الناس . يقول لينين :

« ان الاقتصاد السياسي لا يعني ابدا « بالانتاج » بل بالعلاقات الاجتماعية بين الافراد في الانتاج ، بالبناء الاجتماعي للإنتاج » (٢) . يدرس الاقتصاد السياسي علاقات الانتاج في تفاعلها مع القوى

(٢) لينين : تطور الرأسمالية في روسيا . المؤلفات . الجزء الثالث صفحة ٤٠ -

٤ الطبعة الروسية الرابعة .

المنتجة . ان القوى المنتجة وعلاقات الانتاج مجتمعة تؤلف اسلوب
الانتاج .

ان القوى المنتجة هي اكثرا عن انصار الانتاج حركة وثورية . ويبدأ
تطور الانتاج بتبدلاته في القوى المنتجة، وقبل كل شيء ، بتبدل وتطور
في ادوات الانتاج ، ثم تحدث تبدلاته مطابقة في علاقات الانتاج .
وRelations الانتاج بين الناس ، التي يتوقف تطورها على تطور القوى
الم المنتجة ، تؤثر بدورها تأثيرا قويا في القوى المنتجة .

ان بامكان القوى المنتجة في المجتمع ان تتطور قليلا او كثيرا، دون
عائق، ما دامت علاقات الانتاج مطابقة لحالة القوى المنتجة . وتجاوzaز
قوى المنتجة ، منذ بلوغها درجة معينة من تطورها ، نطاق علاقات
الانتاج القائمة وتدخل في نزاع معها . وعندما تتحول علاقات
الانتاج من شكل لتطور القوى المنتجة ، كما كانت سابقا ، لتصبح
قيودا لهذه القوى .

ولذا تستبدل علاقات الانتاج القديمة عاجلا ام آجلا علاقات
جديدة تتفق مع مستوى تطور قوى المجتمع المنتجة وطبيعتها . ومع
تغير الاساس الاقتصادي للمجتمع يتغير ايضا بناؤه الفوقي . ان
الشروط المادية للانتقال من علاقات الانتاج القديمة الى علاقات
جديدة ، تبرز وتنمو في قلب التشكيلة القديمة ذاتها . وتفسح
علاقات الانتاج الجديدة المجال لتطور القوى المنتجة .

قانون **التطابق الضروري** بين علاقات الانتاج وطبيعة القوى
الم المنتجة هو اذن قانون اقتصادي لتطور المجتمع .

في المجتمع القائم على الملكية الخاصة واستثمار الانسان للانسان
تتجلى النزاعات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في النضال
الطبقي . ويحصل الانتقال حينئذ من اسلوب الانتاج القديم الى
الاسلوب الجديد بثورة اجتماعية .

★★★

ان مجموع « علاقات الانتاج يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع،
أي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقى وسياسي»،

وتقابله اشكال معينة من الادراك الاجتماعي » (١) . وحين ينشأ البناء الفوقي يؤثر بدوره في الاساس تأثيرا فعالا ، فاما ان يعجل في تطور هذا الاساس واما ان يعرقله . ومع تبدل الاساس الاقتصادي يتبدل بناؤه الفوقي . يدرس الاقتصاد السياسي علاقات الانتاج ، التي تشكل اساس المجتمع في تفاعلها مع البناء الفوقي ، أي مع الايديولوجية ، والنظارات السياسية والمؤسسات .

ان الاقتصاد السياسي هو علم تاريخي ، علم يدرس الانتاج المادي في اشكاله الاجتماعية المعينة تاريخيا ، يدرس القوانين الاقتصادية الخاصة بمختلف اساليب الانتاج . القانون الاقتصادي هو جوهر الظاهرات والتطورات الاقتصادية ، هو العلاقة السببية والتبعية للضروريات الثابتتان ، أي المتكررتان ، الملازمتان داخليا لهذه الظاهرات والتطورات .

ان قوانين التطور الاقتصادي هي قوانين موضوعية . فهي تنشأ وتفعل وفقا لشروط اقتصادية معينة ، وبصورة مستقلة عن ارادة الناس ويبطل مفعولها بزوال هذه الشروط . والقوانين الاقتصادية هي قوانين تطور علاقات الانتاج ، وهي التي تنظم العلاقات الاجتماعية للإنتاج وتوزيع الخيرات المادية .

ويستطيع الناس ان يعرفوا هذه القوانين وان يستخدموها لمصلحة المجتمع ، ولكنهم لا يستطيعون ان يلغوا او يوجدوا قوانين اقتصادية . والناس بتأثيرهم على الاقتصاد وفق القوانين التي ادركوها وعلى اساس نضج متطلبات تطور الاقتصاد ، يساعدون على نشوء علاقات انتاج جديدة ، مع القوانين الجديدة الملزمة لها . ان استخدام القوانين الاقتصادية في مجتمع طبقي له دائما صفة طبقة : فالطبقة الطبيعية في كل تشكيلة اجتماعية تستخدم القوانين الاقتصادية لمصلحة تطور المجتمع تطورا تدريريا ، بينما تعارض في ذلك الطبقات التي انقضى عهدها .

(١) كارل ماركس : مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي : تمهد . انظر ماركس - انجلز : « دراسات فلسفية » . صفحة ٧٣ - « المنشورات الاجتماعية » ١٩٥١ .

لكل اسلوب انتاج قانونه الاقتصادي الاساسي الذي يعبر عن جوهره ويحدد قانون حركته ويحدد الخط الرئيسي لتطور المجتمع. وان القوانين الاقتصادية الاخرى ، بخلاف القانون الاقتصادي الاساسي ، تمثل بعض النواحي الاساسية في علاقات الانتاج وتحدد بعض عمليات التطور الاقتصادي للمجتمع . ويدخل القانون الاقتصادي الاساسي في تفاعل متبادل مع القوانين الاقتصادية الاخرى لمجتمع معين ، ويؤدي دوراً موجهاً بالنسبة لها .

ان الاقتصاد السياسي « يدرس اولاً القوانين الخاصة بكل درجة من درجات تطور الانتاج والتبادل ، وهو لا يستطيع ان يضع بعض القوانين العامة تماما الصالحة للتطبيق على الانتاج والتبادل الا في نهاية هذه الدراسة » (١) . وبالتالي ، ان تطور مختلف التشكيلات الاجتماعية يخضع للقوانين الاقتصادية بهذه التشكيلات ذاتها ، كما يخضع للقوانين العامة التي تصح على جميع التشكيلات ، كقانون التطابق الضروري بين علاقات الانتاج وطبيعةقوى المنتجة وقانون انتاجية العمل المتنامية وغيرهما . فالتشكيلات الاجتماعية ليست فقط متميزة ببعضها عن بعض بانقوانين الاقتصادية الخاصة باسلوب الانتاج المعين ، وانما هي ايضا مرتبطة فيما بينها ببعض القوانين الاقتصادية العامة التي تصح على جميع التشكيلات .

الاقتصاد السياسي يدرس النماذج الاساسية لعلاقات الانتاج المعروفة في التاريخ ، وهي : **المشاعية البدائية ، الرق ، الاقطاعية ، الرأسمالية ، الاشتراكية** . والمشاعية البدائية هي نظام اجتماعي سبق وجود الطبقات . والرق والقطاعية والرأسمالية هي اشكال مختلفة لمجتمعات قائمة على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى استعباد الجماهير الكادحة واستثمارها . والاشتراكية هي نظام اجتماعي قائم على الملكية الاجتماعية الاشتراكية لوسائل الانتاج ومتتحرر من استثمار الانسان للانسان .

(١) انجلز : كتاب « انتيپوهرنف » ، الجزء الثاني الفصل الاول صفحة ١٧٩ من المنشورات الاجتماعية باريس ١٩٥٠ .

يدرس الاقتصاد السياسي تطور الانتاج الاجتماعي من الاشكال الدنيا الى الاشكال العليا ، وظهور النظم الاجتماعية المؤسسة على استثمار الانسان للانسان وتطور هذه النظم وزوالها . وهو يوضح كيف ان كل سير التطور التاريخي يعني انتصار اسلوب الانتاج الاشتراكي . كما انه يدرس القوانين الاقتصادية للاشتراكية وقوانين ولادة المجتمع الاشتراكي وتطوره نحو المرحله العليا للشيوعية .

وهكذا ، فان **الاقتصاد السياسي** هو العلم الذي يبحث تطور علاقات الانتاج الاجتماعية بين الناس ، اي العلاقات الاقتصادية بينهم ، وهو يشتمل عن القوانين التي تسيّر انتاج الخيرات المادية وتوزيعها في المجتمع البشري في مختلف مراحل تطوره .

اسلوب الاقتصاد السياسي

ان اسلوب الاقتصاد السياسي الماركسي هو اسلوب المادية الديانكتيكية ، والاقتصاد السياسي الماركسي اللينيني قوامه تطبيق المبادئ الاساسية للمادية الديانكتيكية والمادية التاريخية . في دراسة النظام الاقتصادي للمجتمع .

والاقتصاد السياسي ، خلافا لعلوم الطبيعة كالفيزياء والكيمياء الخ ، لا يستطيع ، عندما يدرس نظام المجتمع الاقتصادي ، ان يلجأ الى اختبارات وتجارب مخبرية تجري في شروط تهيا بصورة مصطنعة . تزال فيها الظاهرات التي تحول دون فحص سياق التطور في مظهره الصافي .

وقد قال ماركس انه « عند تحليل الاشكال الاقتصادية لا يمكن استخدام المجهر ولا الكواشف الكيميائية . فقوة التجريد هي التي ينبغي ان تحل محل المجهر والکواشف » (١) .

ان كل نظام اقتصادي يمثل لوحة معقدة ومتناقصة . فمهمة

(١) كارل ماركس : رأس المال الكتاب الاول الجزء الاول . توطئة الطبعة

الالمانية الاولى صفحة ١٨ المنشورات الاجتماعية باريس ١٩٤٧ .

الدراسة العلمية هي ان تكشف ، بمعونة التحليل النظري ، عمما يكمن وراء المظاهر الخارجية للظاهرات الاقتصادية ، من عمليات التطور العميق ، ومن الملامح الاساسية لللاقتصاد المعبّرة عن جوهر علاقات الانتاج ، وان تضرب صفحات عن الخطوط الثانوية .

ان هذا التحليل العلمي يؤدي الى **المفهومات الاقتصادية** ، اي الى المفاهيم التي هي التعبير النظري عن علاقات الانتاج الواقعية في التشكيلة الاجتماعية المعينة ، كالبضاعة مثلا ، والقيمة ، والنقد ، والحساب الاقتصادي وسعر الكلفة ويوم العمل الخ .

ان اسلوب ماركس قوامه الارتفاع تدريجيا من ابسط المفهومات الاقتصادية الى ما هو اكثـر تعقيدا ، الامر الذي يتواافق مع الحركة الصاعدة في المجتمع المتتطور من الاشكال الدنيا الى الاشكال العليا . والبحث المنطقي في دراسة من هذا النوع ، لمفهومات الاقتصاد السياسي ، هو انعكاس السير التاريخي للتطور الاجتماعي .

ان ماركس في تحليله علاقات الانتاج الرأسمالية يبدأ بابراز ابسط علاقة عامة واكثـرها حدوثا وهي : مبادلة بضاعة ببضاعة اخـرى . فهو يبين في البضاعة التي هي الخلية الاولى في الاقتصاد الرأسمالي ، جرثومة تناقضات الرأسـمالـية . وعلى اساس تحليل البضاعة يشرح ماركس ظهور النقد ، ويرسم سير تحول النقد الى رأسـمال ، ويكتشف عن حقيقة الاستثمار الرأسـمالـي . ان ماركس يبين كيف ان التطور الاجتماعي يؤدي بصورة محتملة الى سقوط الرأسـمالـية وانتصار الشـيـوعـية .

لقد اشار لينين الى ان بحث الاقتصاد السياسي ينبغي ان يعني بوصف مراحل التطور الاقتصادي المتعاقبة . ولذا يبحث هذا الكتاب مفهومات الاقتصاد السياسي الرئيسية وهي : البضاعة ، والقيمة والنقد والرأسـمالـ الخ ، حسب التسلسل التاريخي لظهورها في مختلف مراحل تطور المجتمع البشري .

وهكـذا ، فسيجد القارئ مبادىء أولية عن البضاعة والنقد في الفصول المخصصة للتشكيلات السابقة لعهد الرأسـمالـية . بيد ان

هذه المفهومات مبحوثة بصورة او في في الجزء المخصص للدراسة الاقتصاد الرأسمالي المتطور ، الذي تبلغ فيه هذه المفهومات اوج تطورها . وقد اتباع النهج نفسه في عرض الاقتصاد الاشتراكي . فقد اوردنا في القسم المكرس لمرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مبادىء اولية عن قانون الاشتراكية الاقتصادي الاساسي وعن قانون تطور الاقتصاد الوطني تطورا منسجماً متناسباً ، وعن قانون التوزيع حسب العمل ، وعن القيمة والنقد . غير أن الدراسة الكاملة لهذه القوانين والمفهومات قد عولجت في الجزء المخصص لبحث «النظام الاشتراكي للاقتصاد الوطني» .

ان الاسلوب الماركسي يتتيح امكانية معرفة القوانين الموضوعية للتطور الاقتصادي واستخدامها في التطبيق ، لصالح بناء المجتمع الشيوعي . يقول لينين : « من التأمل الحي ، الى التفكير المجرد ومنه الى التطبيق العملي ، هذا هو الطريق الذي يكتبه معرفة الحقيقة ، معرفة الواقع الموضوعي » (١) .

والاقتصاد السياسي ، خلافاً للتاريخ ، لا يستهدف مطلقاً دراسة تاريخ تطور المجتمع في كل تشعباته المموجة ، وإنما يعطي مبادئ أساسية عن الخطوط الرئيسية لكل نظام من أنظمة الاقتصاد الاجتماعي .

وتقوم الى جانب الاقتصاد السياسي فروع أخرى من العلم تدرس العلاقات الاقتصادية في الفروع الخاصة من الاقتصاد الوطني ، بالاستناد الى القوانين التي اكتشفها الاقتصاد السياسي : كالاقتصاد الصناعي والاقتصاد الزراعي الخ .

التابع الطبي لل الاقتصاد السياسي

يعنى الاقتصاد السياسي بالقضايا الواقعية الملحة التي تمس مصالح الناس الحيوية ومصالح مختلف طبقات المجتمع . هل

(١) المجموعة المينينية ، ٩ ، الصفحة ١٦٥ ، ١٦٧ باللغة الروسية .

زوال الرأسمالية وانتصار النظام الاقتصادي الاشتراكي شيء لا معدى عنه ؟ وهل تتناقض مصالح الرأسمالية مع مصالح المجتمع وانتقادم الانساني ؟ وهل الطبقة العاملة هي حافرة قبر الرأسمالية ؟ وهل هي مدعوة لتحرير المجتمع من الرأسمالية ؟ عن هذه الأسئلة وأسئلة أخرى مماثلة يجيب الاقتصاديون أجوبة مختلفة حسب مصالح الطبقات التي يعبرون عنها . وهكذا يتضح لنا انه لا يوجد في الوقت الحاضر اقتصاد سياسي مشترك لكل طبقات المجتمع ، بل ان هنالك انواعا عددة : الاقتصاد السياسي **البورجوازي** ، والاقتصاد السياسي **البروليتاري** ، والاقتصاد السياسي **للطبقات الوسطى** . أي للبرجوازية الصغيرة .

وانه من الخطأ المطلق ، الادعاء ، كما يفعل بعض الاقتصاديين ، بأن الاقتصاد السياسي هو علم محайд وليس علما حزبيا ، وانه مستقل عن نضال الطبقات الاجتماعية وليس له اية صلة مباشرة او غير مباشرة باي حزب سياسي .

هل يمكن ، بصورة عامة ، ان يوجد اقتصاد سياسي موضوعي ، غير متحيز ، ولا يخشى الحقيقة ؟ اجل ، بلا ريب . ولا يمكن ان يكون هذا سوى الاقتصاد السياسي للطبقة التي ليس لها مصلحة في اخفاء تناقضات الرأسمالية وتغطية قروحها ، وفي ادامة النظام الرأسمالي ، تلك الطبقة التي تندمج مصالحتها بمصلحة تحرير المجتمع الذي تستعبده الرأسمالية ، تلك الطبقة التي مصالحها هي ايضا مصالح التقدم البشري . وهذه الطبقة هي الطبقة العاملة . ولذا كان الاقتصاد السياسي الذي يدافع عن مصالح الطبقة العاملة هو الاقتصاد السياسي الوحيد الذي يمكن ان يكون موضوعيا ومنزها . وهذا هو الاقتصاد السياسي الماركسي اللينيني .

ان الاقتصاد السياسي الماركسي يشكل الجزء الاهم في النظرية الماركسية اللينينية .

ان ماركس وانجلز القائدين والنظريين الكبيرين للطبقة العاملة هما اللذان اسسوا الاقتصاد السياسي البروليتاري . فقد كشف

ماركس في كتابه العبرقي « الرأسمال » القوانين التي تسير نشوء الرأسمالية وتطورها وسقوطها، وأتى بالبرهان الاقتصادي على ضرورة الثورة الاشتراكية وقيام ديمقراطية البروليتاريا . وقد وضع ماركس وانجلز الخطوط الكبرى لنظرية المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية ولنظرية مرحلتي المجتمع الشيوعي .

وقد طوّر ، فيما بعد ، مذهب الماركسيّة الاقتصاديّ ، تطويراً خلاقاً في مؤلفات لينين ، مؤسس الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية ، والمكمل العبرقي لعمل ماركس وانجلز . لقد اغنى لينين علم الاقتصاد الماركسي بتعظيم التجربة المكتسبة في الظروف الجديدة للتطور التاريخي ، وذلك بخلق النظرية الماركسيّة عن الاستعمار . لقد كشف عن جوهر الاستعمار الاقتصادي السياسي ، كما صاغ الخطوط الكبرى لنظرية الأزمة العامة للرأسمالية . وهو صاحب نظرية جديدة عن الثورة الاشتراكية . وقد صاغ لينين تعاليم عن طرق بناء الاشتراكية والشيوعية وأساليبه .

ان قرارات الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيaticي والاحزاب الشيوعية الشقيقة واعمال قادة هذه الاحزاب ، لا تفتّأ تفني النظرية الاقتصادية الماركسيّة الليينينية باستنتاجات ومواضيعات جديدة بالاستناد الى خلاصة النشاط العمالي في النضال الثوري وفي بناء الاشتراكية والشيوعية . وبالاستناد الى المؤلفات الأساسية لماركس وانجلز ولينين الذين خلقوا اقتصاداً سياسياً علمياً حقاً ، قام ستالين النظري الماركسي اللييني البارز بصوغ عدد من المواضيعات الجديدة في ميدان الاقتصاد السياسي وتطوير هذه المواضيعات .

ان الاقتصاد السياسي الماركسي الليينيني هو سلاح فكري جبار في ايدي الطبقة العاملة وكل الانسانية الكادحة في نضالهما للتحرر من الاضطهاد الرأسمالي . ان السر في قوة النظرية الاقتصادية الماركسيّة الليينينية وفي حيويتها ، انها تسلح الطبقة العاملة والجماهير الكادحة بمعرفة قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع ، وتفتح امامها آفاقاً واسحةً مشرقةً ، وتغرس فيها الثقة بانتصار الشيوعية النهائية .

الفصل الثاني

أسلوب الإنتاج في المasyarakat البدائية

ظهور المجتمع الإنساني

ظهر الإنسان في بدء المرحلة الحاضرة من تاريخ الأرض ، المسمىة بالمرحلة الرابعة ، وتبلغ مدتتها ، حسب تقرير العُلماء ، مليون سنة الا قليلا . ففي مختلف مناطق اوروبا وآسيا وافريقيا ذات المناخ الحار والرطب ، كان يعيش نوع متطور جدا من القرود ذات الشكل البشري ، ومنها تحدى الإنسان بعد تطور طويل مر بسلسلة من الأدوار الانتقالية المتوسطة .

لقد سجل ظهور الإنسان انعطافا حاسما في تطور الطبيعة . وحدث هذا الانعطاف لما أخذ اسلاف الإنسان يصنعون أدوات للعمل . فالإنسان يبدأ بالتمييز عن الحيوان ، بصورة أساسية ، منذ اللحظة التي يبدأ فيها بصنع الأدوات ، مهما تكن بسيطة . ومن المعلوم أن القردة تستعمل في الغالب عصا او حجرا لاستقطاب الأثمار من الشجر او للدفاع عن نفسها متى هوجمت . ولكن ما من حيوان صنع قط اية أداة ولو بدائية جدا . لقد كانت ظروف العيش تحفز اسلاف الإنسان الى صنع أدوات لهم . وقد اوحى إليهم خبرتهم بأنهم يستطيعون ان يستخدموا الحجارة المشحوذة للصيد او للدفاع عن أنفسهم في حالة الهجوم عليهم ، فشرعوا

يصنعون ادوات من الحجارة بضرب حجر على اخر . وهذا يسجل بدء صنع الادوات . وبصنع الادوات بدأ العمل .

وبفضل العمل ، أصبحت اطراف الاعضاء الامامية للقرد الشبيه بالانسان يدين للانسان ، كما تشهد بقایا **البيتكانتروب** التي عشر عليها علماء الاثار (البيتكانتروب هو الكائن المتوسط بين القرد والانسان) . لقد كان دماغ البيتكانتروب اقل تطورا بكثير من دماغ الانسان ، ولكن يده لم تكن تتميز الا قليلا نسبيا عن اليد البشرية . فاليد هي اذن عضو العمل ، وهي في الوقت نفسه نتاج العمل .

وكلما كانت الايدي تتحرر من كل وظيفة سوى العمل كان اسلاف الانسان يزدادون اعتيادا على الوقفة العمودية . ولما أصبحت الايدي مخصصة للعمل ، تم الانتقال النهائي الى الوقفة العمودية ، مما لعب دورا هاما جدا في تكوين الانسان .

كان اسلاف الانسان يعيشون عصابات او قطعانا ، وكذلك كان البشر الاولون ، ولكن ظهرت بين البشر رابطة لم تكن موجة بودة من قبل وما كان يمكن ان توجد في مملكة الحيوان ، وهذه الرابطة هي العمل . كان الناس يصنعون الادوات بصورة مشتركة كما كانوا يستعملونها ايضا بشكل مشترك . وبالتالي ، فان ظهور الانسان قد سجل بدأ **المجتمع البشري** او الانتقال من الحالة الحيوانية الى الحالة الاجتماعية .

ولقد أدى العمل المشترك الى ظهور اللغة المفظية وتطورها . واللغة هي وسيلة او اداة يتصل الناس بواسطتها فيما بينهم ويتبادلون الافكار ويتمكنون من فهم بعضهم بعضا .

ان تبادل الافكار ضرورة دائمة وحيوية ، فبدون ذلك لا يستطيع الناس ان يتفهموا ، في سبيل الكفاح معًا ضد قوى الطبيعة ، وبدون ذلك يصبح الانتاج الاجتماعي ذاته غير ممكن .

لقد كان للعمل واللغة المفظية تأثير حاسم في تكامل اجهزة الانسان وفي تطور دماغه . ان تطور اللغة مرتبط ارتباطا وثيقا بتطور التفكير . وفي سياق العمل ، كانت تتسع دائرة مدارك

الانسان وتصوراته ، وتكامل اعضاء حواسه . كان الانسان يوسع مدى مداركه وتصوراته ، ويزيد حواسه تكاملا . وخلافا لافعال الحيوان الغريزية ، صارت افعال الانسان خلال العمل ، تتخذ شيئا فشيئا صفة واعية . وهكذا ، فان العمل :

شروط الحياة المادية في المجتمع البدائي . تطور ادوات العمل
كان الانسان البدائي يخضع ، الى حد بعيد ، للطبيعة
المحيطة به . فكانت صعوبات العيش وصعوبات الكفاح ضد
الطبيعة ترهقه ارهاقا تاما . ولم يتوصل الى ترويض قوى الطبيعة
 الا بأقصى درجات البطء وذلك بسبب طبيعة ادوات العمل
 البدائية . فقد كانت اولى ادواته حجرا سيء القطع وعصا . وكانت
 هاتان الاداتان تكملان نوعا ما اعضاء جسمه بشكل مصطنع :
 فالحجر امتداد لقبضته والعصا امتداد لذراعه .

كان الناس يعيشون جماعات لا تربو الواحدة منها على بضع عشرات من الاعضاء ، لانه ما كان يمكن لافراد اوفر عدداً ان يجدوا ما يكفيهم جميعاً من الغذاء . واذا التقى جماعتان ، كانت تتشب النزاعات بينهما في بعض الاحيان . وكان كثير من هذه الجماعات يموتون جوعاً او يصبحون فريسة للوحوش الضاربة . ولذا كان العمل المشترك ضرورة مطلقة للناس والسبيل الوحيد امامهم .

داش الناس البدائيون دهرا طويلا من جني الثمار والق嫩س
وكانوا يقومون بذلك بشكل جماعي مستعينين بابسط الادوات .
وكانت ثمرات العمل المشترك تستهلك ايضا بشكل مشترك . ان

(١) انجلز : « دور العمل في تحويل القرد الى انسان » من دياتكتيك الطبيعة
صفحة ١٧١ المنشورات الاجتماعية بباريس ١٩٥٢ .

عدم توفر الغذاء بشكل دائم يفسر وجود عادة أكل اللحوم البشرية عند الناس البدائيين . وخلال الاٰف مؤلفة من السنين ، تعلم الناس بالتلمس وبالخبرة التي تجمعت شيئاً فشيئاً ببطء شديد ، ان يصنعوا ابسط الادوات التي تصلح للضرب والقطع والحرف والقياس بالاعمال الاخرى القليلة التعقيد التي كان ينحصر فيها تقريباً كل الانتاج آنذاك .

وكان اكتشاف النار فتحا عظيماً للانسان البدائي في كفاحه ضد الطبيعة . وفي البداية تعلم الناس استخدام النار المشتعلة عفواً : لقد رأوا كيف تحرق الصاعقة الشجرة وشهدوا الحرائق في الغابات ، وانفجارات البراكين . وكانت النار التي يحصلون عليها بطريق الصدفة تحفظ بعناية زمنا طويلاً . ولم ينفذ الانسان الى سر انتاج النار الا بعد الاٰف مؤلفة من السنين . فقد لاحظ ، عندما تقدم في صنع الادوات ، ان النار تحصل من الاحتكاك وبذلك تعلم ان ينتجها .

ادى اكتشاف النار واستعمالها الى تمكين الناس من السيطرة على بعض قوى الطبيعة . وانفصل الانسان البدائي نهائياً عن مملكة الحيوان ، وانتهت المراحل الطويلة لتكوين الانسان . لقد بدل اكتشاف النار شروط حياة الناس المادية تبديلاً عميقاً . وفي البداية اتاحت النار تهيئة الاطعمة ومن ثم زيادة عددها . وهكذا اصبح في وسعهم ان يقتاتوا بالسمك واللحم والجذور والدرنيات النباتية النشوية وغيرها لان النار مكتنفهم من طبخ هذه الاشياء .

ثم بدأت النار تلعب دوراً هاماً في صنع ادوات الانتاج ، كما كانت ، من ناحية ثانية ، تقي الناس من البرد مما اتاح لهم الانتشار على مساحة من الكره الأرضية اكثر اتساعاً . كذلك اتاحت النار للناس ان يدافعوا عن انفسهم دفاعاً افضل ضد الوحوش المفترسة .

لقد بقي الصيد زمنا طويلاً المصدر الرئيسي لوسائل العيش . فقد كان يوفر للناس الجلود يكتسون بها ، والعظماء يصنعون منها ادواتهم ، واللحم يفتذون به . وقد اثر هذا

الغذاء ، فيما بعد ، في تطور اعضاء الجسم البشري ، ولا سيما في الدماغ .

ومع تطور الانسان جسديا وفكريا كان يزداد مقدرة على صنع ادوات اكثر اتقانا . فكان يستعمل للصيد عصا مدببة الطرف . ثم ثبتت في رأس هذه العصا سنانا من الحجر . وبعد ذلك ، اصبحت في حوزته حراب ذات سنان حجرية ، وفؤوس ومجارف ومدى وخطاطيف وكلاليب من الحجر . وقد اتاحت هذه الادوات صيد الطرائد الكبيرة وتطویر صيد الاسماك .

بقي الحجر احقبا مديدة المادة الرئيسية التي تصنع منها الادوات . وقد اطلق اسم **العصر الحجري** على الزمن الذي ساد فيه استعمال الادوات الحجرية . وقد امتد مئات الالاف من السنين . وبعد ذلك تعلم الناس ان يصنعوا ادوات من المعدن ، من المعدن الخام في الابتداء . وقد بدأوا بالنحاس (الا ان النحاس وهو معدن لين ، لم يكن بالمستطاع استعماله على نطاق واسع في صنع الادوات) ، ثم انتقلوا الى البرونز (مزيج من النحاس والقصدير) وبعد ذلك الى الحديد . فبعد العصر الحجري يأتي **العصر البرونزي ثم عصر الحديد** .

ان اقدم آثار صب النحاس في آسيا القديمة تعود الى الالف الخامسة او الرابعة قبل عهdena ، وفي اوروبا الجنوبية والوسطى الى الالف الثالثة او الثانية . وأول آثار البرونز في ما بين النهرين (1) يرجع تاريخها الى الالف الرابعة قبل عهdena .

ان اقدم آثار صب الحديد قد اكتشفت في مصر وفي ما بين النهرين وهي تعود الى الفي سنة قبل عصرنا . اما عصر الحديد في اوروبا الغربية فقد بدأ قبل عهdena بنحو الف عام .

سجل اختراع القوس والنشاب مرحلة هامة في تاريخ اتقان

(1) بلاد ما بين النهرين هي البقعة الواقعة بين دجلة والفرات - هيئة التعریب .

أدوات العمل . ومنذ ذلك الحين اصبح الصيد يعطي وسائل العيش الضرورية بكميات متزايدة . ان تقدم الصيد افسح المجال للتربية **الماشية** بشكلها البدائي ، وببدأ الصيادون بتدجين الحيوانات : الكلب اولا ، ثم الماعز والبقر والخنزير والحصان .

وشكلت الزراعة البدائية تقدما جديدا كبيرا في تطور قوى المجتمع المنتجة . فقد لاحظ الناس البدائيون الافا من المرات في أثناء جني الشمار والجذور ان الحبوب المتتساقطة على الارض كانت تنبت وتتنمو ، ولكنهم لم يدركوا لماذا . الى ان ازف اليوم الذي استطاع فيه فكرهم ان يستنتج الرابطة بين هذه الحوادث، فبدأوا يزرعون النباتات . وكان ذلك بداية الزراعة .

ظلت اساليب الزراعة وقتا طويلا وهي مفرقة في البدائية . فكان الناس يقلبون التربة بعضا بسيطة ، ثم بعضا معقوفة الطرف: هي المجرفة . وكانوا يلقون الجذور على الرواسب التي تخلفها الفيضانات في اودية مجاري المياه . واتاح تدجين الحيوانات استخدام الماشية كقوة للجر . وعندما تعلم الناس صب الماء في ما بعد ، ادى استخدام الادوات المعدنية الى ازدياد انتاج العمل الزراعي . واصبح للزراعة اساس امتن من ذي قبل ، وأخذت القبائل البدائية تتحضر بصورة مطردة .

علاقات الانتاج في المجتمع البدائي . التقسيم الطبيعي للعمل

ان علاقات الانتاج تعينها طبيعة وحالة القرى المنتجة . ففي المشاعية البدائية ، تؤلف الملكية المشتركة لوسائل الانتاج اساس العلاقات الانتاجية . وتطابق الملكية المشتركة طبيعة القرى المنتجة في ذلك الحين . فادوات العمل كانت بدائية الى درجة لا تسمح للناس ان يناضلوا منفردين ضد قوى الطبيعة وضد الوحش المفترسة . وقد قال ماركس :

« ان هذا النوع البدائي من الانتاج الجماعي او التعاوني كان

ـ \نتيجة لضعف الفرد المنعزل ، كما هو معلوم ، لا نتيجة لجعل وسائل الانتاج اجتماعية » (١) .

ـ ومن هنا نشأت ضرورة العمل الجماعي ، وضرورة الملكية المشتركة للارض ولوسائل الانتاج الاخرى ولثمار العمل نفسها . أن الناس البدائيين لم تكن لديهم فكرة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . فقد كانت الملكية الفردية مقتصرة عندهم على بعض ادوات الانتاج التي كانت تشكل في الوقت نفسه وسائل للدفاع ضد الوحوش المفترسة ، وكان بعض اعضاء المشاعية يستخدمون هذه الادوات .

ـ لم يكن عمل الانسان البدائي يعطي اي فائض عما هو ضروري تماماً او بتعبير اخر اي انتاج اضافي او انتاج زائد . فالمملكة ثمة مجال ، واللحالة هذه ، لوجود طبقات او لاستغلال الانسان للانسان . ولم تكن الملكية الاجتماعية تشمل سوى مشاعيات صفيرة منعزل بعضها عن بعض بدرجات مختلفة . وهكذا ، فإن صفة الانتاج الاجتماعية كما بين لينين ، لم تكن تشمل سوى اعضاء المشاعية الواحدة .

ـ كان العمل في المجتمع البدائي يقوم على التعاون البسيط . والتعاون البسيط قوامه استخدام قدر كبير او صغير من قوة العمل ، في وقت واحد ، لإنجاز اعمال من نوع واحد . وكان التعاون البسيط يمكن الناس البدائيين من إنجاز مهام ، يتعدى على انسان واحد ان يقوم بها (كصيد كبيرة الاوابد مثلاً) .

ـ وكان مستوى القوى المنتجة البالغ أقصى درجات الانخفاض يفرض تقاسم الفداء الهزيل ، بحصص متساوية . وكان من غير الممكن اعتماد طريقة اخرى للتوزيع ، لأن منتجات العمل ما كانت تكفي لسد اشد الحاجات الحاحا ، الا بالجهد الجهيد . فلو نال احد اعضاء المشاعية حصة اكبر من حصة كل واحد لقضى

(١) مسودة رسالة من ماركس الى فيرا زاسوليش : ماركس - انجلس - المؤلفات - الجزء ٢٧ الصفحة ٦٨١ - الطبعة الروسية .

على أحد أعضاء المشاعية بالموت جوعاً . ولذا كان التوزيع المتساوي لمنتجات العمل المشترك ضرورة لا محيد عنها .

كان تقسيم كل شيء إلى حصص متساوية عادةً راسخة عند الشعوب البدائية . فان الرحالة الذين اقاموا بين القبائل التي ما تزال في مرحلة دنيا من التطور الاجتماعي قد استطاعوا ان يشهدوا ذلك بأنفسهم . لقد نقل العالم الطبيعي الكبير داروين ، منذ اكثـر من قرن ، عندما كان يقوم بجولة حول العالم ، الحادث التالي : « قدم احدهم قطعة من القماش هدية الى فريق من اهالي جزيرة « ارض النار » فمزقوها قطعاً متساوية تماماً ليصيب كل منهم قطعة منها » .

ان القانون الاقتصادي الاساسي لنظام المشاعية البدائية قوامه انتاج الوسائل الضرورية ، ضرورة حيوية ، لوجود المشاعية البدائية، بواسطة ادوات عمل بدائية وعلى اساس العمل الجماعي.

ان تطور ادوات الانتاج ادى الى تقسيم العمل . وابسط اشكال هذا التقسيم هو **التقسيم الطبيعي للعمل** بـعا للجنس والسن: بين الرجال والنساء، ثم بين البالغين والاحداث والشيوخ.

ان الرحالة الروسي الشهير ميكلوخو - مكلاي الذي درس حياة البابو في غينيا الجديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، قد وصف العمل الجماعي في الزراعة عندهم كما يلي : يقف عدد من الرجال على صف واحد ويفرزون عصياً مدببة الاطراف في اعمق الارض ثم يقلبون كتلة من التراب دفعة واحدة . وتتقدم النساء وراءهم جاثيات على الركبتين فيفتتن بعضهن فيذهبن التراب الذي قلبه الرجال . ثم يأتي الاولاد من كل سن فيسحقون حبات التراب الصغيرة بـايديهم . وعندما ينتهي قلب الارض تفتح فيها النساء بواسطة قضبان صغيرة تقوبها يطمرن فيها الحبوب او جذور النباتات . فالعمل اذن هو ، من ناحية ، ذو صفة جماعية ، وهو من ناحية اخرى، مقسم حسب الجنس والسن .

ومع تطور القوى المنتجة ، رسخ التقسيم الطبيعي للعمل واستقر . فاصبح الصيد من اختصاص الرجال ، كما اصبح جنـي

الاغذية النباتية والاهتمام بشؤون المنزل من اختصاص النساء ، مما ادى الى زيادة انتاجية العمل بعض الشيء .

نظام ((العشيرة)) (١) حق الامومة . حق الابوة

قبل ان تنفصل البشرية انفصلا كاملا عن مملكة الحيوان ، كان الناس يعيشون قطعانا وعصابات كاسلافهم المباشرين . وفيما بعد ، حين تكون اقتصاد بدائي ، وازداد عدد السكان تدريجيا ، انتظم المجتمع في ((عشائر)) .

في ذلك العهد ، كان الناس الذين يمكنهم ان يتجمعوا ليعملوا معا هم الذين تجمع بينهم روابط الدم فقط . فانحالة البدائية التي كانت عليها ادوات الانتاج لم تكن تسمح بممارسة العمل الجماعي الا ضمن نطاق ضيق يضم فريقا من الافراد الذين تربط بينهم علاقات النسب الابوية والعيش بصورة مشتركة . فالانسان البدائي كان ينظر عادة الى كل من لا تربطه به قرابة الدم والحياة المشتركة داخل العشيرة على انه من الاعداء . ولقد تألفت العشيرة في البداية من بضع عشرات من الافراد الذين تجمعهم روابط الدم . وكانت كل عشيرة تعيش منطوية على نفسها . ولكن عدد هذه الجماعة ازداد مع الزمن وبلغ عدد مئات من الافراد ، وتطورت عادة الحياة المشتركة . كما ان مزايا العمل الجماعي زادت الناس ميلا الى البقاء معا .

ان مورغان الذي درس حياة الناس البدائيين قد وصف نظام العشيرة الذي كان لا يزال قائما عند الهنود الایروكيين في اواسط القرن الماضي . ويؤخذ من اقواله ان اهم مشاغل الایروكيين هي : القنص وصيد الاسماك ، وجني الاثمار والزراعة . والعمل مقسم بين الرجال والنساء . فالقنص وصيد الاسماك وصيغ الاسلحة والادوات واستصلاح الارض وبناء الاكواخ واعمال التحصين كانت من

(١) « العشيرة » : ترجمة الكلمة Gens اللاتينية ، وهي تدل على الجماعية التي تضم فقط اعضاء تربطهم روابط الدم .

نصيب الرجال . وتقوم النساء بأهم اعمال الحقول كجمع الفلال ونقلها إلى المنزل ، كما يطهين الطعام ، ويصنعن الالبسة والاواني الفخارية ويقطفن الاثمار البرية كالعنبيات ، والبندق ، والدرنیات . وكانت الارض ملك العشيرة . أما الاعمال الضخمة كقطع الشجر واحتشاث الارومات ، واعمال القنص الكبرى فكانوا يقومون بها مجتمعين . كان الايروكيون يعيشون في ما يسمونه « المنازل الكبيرة » التي تتسع لايواه عشرين اسرة او اكثر . وكان لكل فريق من هذا النوع مستودع مشترك يضع فيه مؤنه . وكانت المرأة القائمة على رأس الفريق توزع الغذاء بين الاسر . وفي حالة الحرب كانت العشيرة تنتخب زعيمها عسكريا دون ان تفرد عليه زعامته بأية ميزة مادية . وتنتهي سلطتها بانتهاء الحرب .

كانت المرأة في المرحلة الاولى من نظام العشيرة تحتل مكانة متفوقة ، نتيجة لشروط الحياة المادية في ذلك العهد . فالصيغة التي كان من اختصاص الرجال وكانت أدواته بدنائية الى أقصى حد ، لم يكن بوسعه تأمين حياة الجماعة تأميناً كافياً ، لا سيما ونتائجها متوقفة ، بصورة عامة تقريباً ، على الحظ والصدفة . ففي هذه الاحوال ، اكتسبت زراعة الارض وتربية الماشي (أي تدجين الحيوانات) اهمية اقتصادية كبيرة رغم اشكالهما الجنينية البدائية جداً . فقد كانتا مصدراً لوسائل العيش اضمن واكثر انتظاماً من الصيد . وقد كانت الزراعة وتربية الماشي ، ولا سيما في العهد البدائي ، من اختصاص النساء اللواتي يبقين في المنزل بينما يذهب الرجال الى الصيد . وقد لعبت المرأة خلال زمن طويل الدور الرئيسي في المجتمع العشيري . لقد كان النسل ينبع الى الام . تلك كانت العشيرة الامومية وكانت السيادة فيها من حق الامومة .

ومع تطور القوى المنتجة ، حين اخذت تربية المواشي الرحالة (المراعي) ، والزراعة المتطرورة (زراعة الحبوب) ، اللتان كانتا من اعمال الرجال ، تلعبان دورا فاصلا في حياة المشاعية البدائية ؛ حلت العشيرة الابوية محل العشيرة الامومية ، وانتقلت السيادة الى الرجل الذي تسنم رئاسة المشاعية . واصبح النسل ينسب

للباب . لقد قامت العشيرة الابوية في المرحلة الاخيرة من المشاعية البدائية .

ان عدم وجود ملكية خاصة في المشاعية البدائية ، وعدم تقسيم هذا المجتمع البدائي الى طبقات ، وانعدام استغلال الانسان للانسان ، ذلك ما جعل وجود الدولة غير ممكن . يقول لينين : « في المجتمع البدائي ، ... لا يجد المرء اثراً بعد لوجود الدولة . بل نرى في هذا المجتمع سيطرة الاعراف ، كما نرى الهمبة والاحترام والسلطة التي يتمتع بها زعماء العشيرة . ونجد ان هذه السلطة كان معترفاً بها في بعض الاحيان، للنساء – فمركز المرأة آنذاك لم يكن يشبه المركز الذي آلت اليه اليوم ، حيث تعاني الاضطهاد والحرمان من حقوقها . ولكننا ، انى وجهنا النظر ، لا نرى في ذلك العهد رجالاً رفعوا الى مرتبة خاصة وتميزوا عن الاخرين لكي يحكموهم ، لا نرى رجالاً كانوا يملكون بشكل منتظم ومستمر جهازاً للقمع ، جهازاً للعنف ، هدفه خدمة مصالح الحكومة وغاياتها » . (١) .

بداية التقسيم الاجتماعي للعمل وبداية التبادل

مع الانتقال الى تربية الماشية وزراعة الارض ، ظهر التقسيم الاجتماعي للعمل . فقد بدأت مشاعيـات متعددة تزاول نشاطاً منتجاً متمايـزاً ، ثم اخذ مختلف اعضاء المشاعية الواحدة يمارسون بدورهم مثل هذا النشاط . وكان تأليف قبائل الرعـاة اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل .

حققت قبائل الرعـاة بانصرافها الى تربية المـواشي تقدماً هاماً . فقد تعلمت ان تعنى بالماشية بطريقة تضمن الحصول على مزيد من اللـحم والصـوف والـلبن . ان هذا التقسيم الاجتماعي الكبير الاول

(١) لينين : « في الدولة » ، كتاب الدولة والثورة صفحة ١١٢ - ١١٣ ، المنشورات الاجتماعية ١٩٤٧ .

للعمل قد ادى وحده الى ارتفاع انتاجية العمل او تفاصلا محسوسا بالنسبة لذلك العهد .

كان كل اساس للتبادل بين اعضاء المشاعية البدائية معدوما خلال زمن طويل : فكان المنتوج كله يصنع ويستهلك بشكل مشترك . وقد نشأ التبادل وتطور في البداية بين العشائر ، وظل دهرا طويلا متتصفا بصفة عارضة .

ان التقسيم الاجتماعي الكبير الاول للعمل قد غير الوضع . فقد كانت قبائل الرعاة تملك بعض الفائض من الماشية ومن المنتجات اللبنية ومن اللحم والجلود والصوف ، ولكنها كانت بحاجة ايضا الى المنتجات الزراعية . وحققت القبائل التي كانت تزرع الارض ، بدورها ، تقدما في انتاج الغلال الزراعية على مر الزمن . وكان كل من الزارعين والرعاة بحاجة الى الاشياء التي لا يجنونها من عملهم الخاص . ومن هنا نشأ التبادل وتطور .

وانطلقت الى جانب الزراعة وتربية الماشي فعاليات منتجة اخرى . فقد تعلم الناس صنع اواني الفخار منذ اعهد الحجري . ثم ظهرت الحياكة باليد . ومع ظهور صب الحديد اخيرا ، اصبح من الممكن صنع ادوات عمل معدنية (كالمحراث ذي السكمة الحديدية ، والفأس الحديدية) واصبح بالامكان صنع اسلحة (كالسيوف الحديدية) واخذ يتبيّن اكثـر فـاكـثـر انه من الصعب جمع هذه الاشكال من العمل مع الزراعة وتربية الماشي . وشيئا فشيئا ، تكونت في داخل المشاعية فئة من الناس تزاول بعض الحرف . ويوما بعد يوم ، اصبحت المنتجات التي ينتجهـا الحرفيـون من حدادـين وصـانـعي اـسـلـحةـ وـفـاحـوريـينـ ، الخ ... اـشـيـاءـ لـلـمـبـادـلاتـ . وهـكـذاـ اـتـسـعـ نـطـاقـ الـمـبـادـلاتـ .

ظهور الملكية الخاصة والطبقات . تفكك المشاعية البدائية

بلغ نظام المشاعية البدائية اوجهه في عصر حق الامومة . اما

العشيرة الابوية فكانت تحمل في قلبها بذور تفكك المشاعية البدائية .

كانت علاقات الانتاج في المشاعية البدائية متطابقة الى زمن معين مع مستوى تطور القوى المنتجة . ولكن الامر لم يبق كذلك في المرحلة الاخيرة من عهد العشيرة الابوية ، وذلـك بعد ظهور ادوات متقدمة الصنع اكثـر من ذي قبل (العصر الجديـدي) . فنطـاق الملكية المشتركة البالغ الضيق وتوزيع منتجات العمل بالتساوي اخذـا يعوقان تطور القوى المنتجة الجديدة .

لقد كان الجهد الجماعي الذي يقوم به بعض عشرات من الافراد هو السبيل الوحـيد ، حتى ذلك الحين ، لتأمين زراعة حقل من الحقول . فكان العمل المشترـك ، في مثل هذه الحال ، ضرورة لا محيد عنها . ولكن مع تحسـين ادوات الانتاج وارتفاع انتاجـة العمل ، اصبح في وسـع الاسرة الواحدة ان تزرع الحقل وتؤمن لنفسها وسائل العيش التي تحتاج اليـها . فتحسـين الادوات اتاح اذن الانتقال الى الاستثمار الفـردي الذي هو اوفر نتاجـا في الاحوال التاريخية الجديدة . وهـكذا اخذ الشـعور بضرورة العمل المشترك والاقتصاد المشاعي بتناقص شيئا فشيئـا . واذا كان العمل بصورة مشترـكة يؤدي بالضرورة الى الملكية المشترـكة لوسائل الانتاج ، فالعمل الفـردي يستلزم وجود الملكية الخاصة .

ان ظهور الملكية الخاصة لا ينفصل عن التقسيـم الاجتماعـي للعمل وعن تطور التبـادل . وقد كانت عمليـات التبـادل تتم على يـد زعماء المشاعـيات العـشائرـية (الشـيوخ والـبطارـكة) (١) باسم المشاعـية التي يـمثلونـها . وكان ما يتـبـادـلونـه ملكـا للمـشاـعـية . ولكن ، مع تـطـور التقسيـم الاجتماعـي للـعمل وـمع اتسـاع التـبـادـل ، انتـهى الـامر بـزعـماء العـشـائرـ ، شيئا فـشيـئـا الى اعتـبار خـيرـات المشـاعـية مـلكـا خـاصـا لـهم .

كانت الماشية في البداية اهم سلعة للتبادل . وكانت مشاعيـات الرعاة تمتلك قطعـاناً كبيرة من الغنم والماـعز والبـقر . وقد اعتاد الشـيوخ والـبطاركة الذين اصـبحوا يـتـمـتعـون بـسـلـطة واسـعة في المجتمع ، ان يتـصرـفـوا بهـذـهـ القـطـعـانـ كـمـاـ لوـ كانـتـ مـلـكاـ لـهـمـ ، وـكانـ سـائـرـ اـعـضـاءـ المـشـاعـيـةـ يـعـتـرـفـونـ لـهـمـ بـحـقـ التـصـرـفـ الفـعـليـ بـالـقطـعـانـ . وبـهـذـهـ الصـورـةـ ، اـصـبـحـتـ المـاـشـيـةـ مـلـكاـ خـاصـاـ ، ثـمـ تـبـعـتـهاـ تـدـريـجـياـ جـمـيـعـ اـدـوـاتـ الـاـنـتـاجـ . اـمـاـ الـمـلـكـيـةـ الـمـشـترـكـةـ لـلـاـرـضـ فـقـدـ اـسـتـمـرـتـ زـمـنـاـ اـطـولـ .

ادى تطور القوى المنتجة ونشوء الملكية الخاصة الى تفكـكـ العـشـيرـةـ التيـ انـحلـتـ الىـ عـدـدـ مـنـ اـسـرـ الـكـبـيرـةـ الـبـطـرـيرـكـيـةـ . ثـمـ بـرـزـ مـنـ وـسـطـ هـذـهـ اـسـرـ بـعـضـ الـخـلـاـيـاـ العـائـلـيـةـ التيـ جـعـلـتـ مـنـ اـدـوـاتـ الـاـنـتـاجـ وـاوـانـيـ الـمـنـزـلـ وـالـمـاـشـيـةـ مـلـكاـ خـاصـاـ لـهـاـ . وـاخـذـتـ رـوـابـطـ العـشـيرـةـ تـتـرـاـخـىـ معـ تـنـدـمـ الـمـلـكـيـةـ الـخـاصـةـ . وـحلـتـ المـشـاعـيـةـ الـرـيفـيـةـ اوـ مـشـاعـيـةـ الـاـرـضـ مـحـلـ العـشـيرـةـ . وـخـلـافـاـ لـهـذـهـ الـاـخـيـرـةـ ، كـانـ المـشـاعـيـةـ الـرـيفـيـةـ تـتـأـلـفـ مـنـ اـفـرـادـ لـاـ تـرـبـطـهـمـ بـالـضـرـورـةـ رـوـابـطـ النـسـبـ . وـكـانـ الـمـسـكـنـ وـنـتـاجـ الـعـمـلـ الـمـنـزـلـيـ وـالـمـاـشـيـةـ مـلـكاـ خـاصـاـ لـكـلـ اـسـرـةـ . وـبـقـيـتـ الـاحـرـاجـ وـالـمـرـوجـ وـالـمـيـاهـ وـخـيـرـاتـ اـخـرـىـ مـلـكاـ مـشـترـكـاـ كـمـاـ بـقـيـتـ كـذـلـكـ ، بـعـضـ الزـمـنـ ، الـاـرـاضـيـ الـصـالـحـةـ لـلـزـرـاعـةـ . عـلـىـ انـ هـذـهـ الـاـرـاضـيـ الـتـيـ كـانـ يـعـادـ تـوزـيـعـهـاـ بـيـنـ اـعـضـاءـ المـشـاعـيـةـ بـصـورـةـ دـوـرـيـةـ اـصـبـحـتـ بـدـورـهـاـ فـيـماـ بـعـدـ مـلـكاـ خـاصـاـ .

سـجـلـ ظـهـورـ الـمـلـكـيـةـ الـخـاصـةـ وـالـتـبـادـلـ بـدـاـيـةـ انـقلـابـ عـمـيقـ فـيـ كلـ بـنـيـانـ الـجـمـعـيـةـ الـبـدـائـيـ . فـتـطـوـرـ الـمـلـكـيـةـ الـخـاصـةـ وـتـفاـوتـ الـخـيـرـاتـ قـدـ اوـجـداـ مـصـالـحـ مـخـتـلـفـةـ عـنـ مـخـتـلـفـ فـئـاتـ المـشـاعـيـةـ . وـاستـغـلـ الـافـرـادـ الـذـينـ يـقـومـونـ بـوـظـائـفـ الـشـيوـخـ وـالـزـعـماءـ الـعـسـكـرـيـنـ وـالـكـهـانـ مـرـاكـزـهـمـ فـيـ سـبـيلـ الـاـثـرـاءـ ، فـتـمـلـكـوـاـ قـسـماـ كـبـيرـاـ مـنـ الـمـلـكـيـةـ الـمـشـترـكـةـ . وـهـكـذـاـ كـانـ الـرـجـالـ الـذـينـ وـلـواـ هـذـهـ الـمـنـاصـبـ الـاجـتـمـاعـيـةـ يـزـدـادـونـ اـنـفـصـالـاـ عـنـ السـوـادـ الـاعـظـمـ مـنـ اـعـضـاءـ المـشـاعـيـةـ ، وـيـشـكـلـوـنـ نـوـعاـ مـنـ الـاـرـيـسـتوـقـراـطـيـةـ الـتـيـ صـارـتـ

تتوارد السلطان اكثراً فاكثر . واخذت الاسر الارستوغرافية تصبح اغنى الاسر . اما السواد الاعظم من اعضاء المشاعية فكانوا يقعن شيئاً فشيئاً ، بطريقة من الطرق ، تحت التبعية الاقتصادية للسر الارستوغرافية .

بفضل تقدم القوى المنتجة ، اصبح عمل الانسان في تربية المواشي والزراعة يعطيه من مقومات العيش اكثراً مما يلزم للقيام بالأود . فأصبح من الممكن امتلاك العمل الزائد او **العمل الاضافي والمنتج الزائد او المنتوج الاضافي** ، اي القسم من العمل او المنتوج ، الذي يفاض عن حاجات المنتج . وبذا اصبح من المفيد عدم قتل اسرى الحرب كما كان يجري سابقاً ، بل تشغيلهم ، وجعلهم عبيداً ارقاء . لقد كانت اقوى الاسر واغناها تستأثر بالعيبد . وقد ادى عمل الرقيق بدوره الى تفاقم التفاوت الذي كان قائماً ، لأن الاستثمارات التي تستخدم العبيد كانت تشي裡 بسرعة . ومع ازدياد التفاوت في الثروات لم يعد الاغنياء يقتصرون على تحويل اسرى الحرب فقط الى ارقاء ، بل اخذوا ايضاً يفرضون الرق على الذين يصبحون فقراء ومدينين من اعضاء قبيلتهم نفسها . وهكذا نشأ اول تقسيم للمجتمع الى طبقات : الى سادة وعبيد . وكان ذلك بداية استثمار الانسان للانسان ، اي امتلاك بعض افراد لمنتجات عمل افراد آخرين ، بدون مقابل .

تفككت شيئاً فشيئاً علاقات الانتاج التي كانت سائدة في نظام المشاعية البدائية ، وحلت محلها علاقات جديدة تطابق طبيعة القوى المنتجة الجديدة .

اخلي العمل المشترك المكان للعمل الفردي ، والملكية الجماعية للملكية الخاصة والمجتمع العشائري للمجتمع الطبقي . ولذا سيكون تاريخ الإنسانية من الان فصاعداً ، الى ان يبني المجتمع الاشتراكي ، **تاريخ نضال الطبقات** .

يزعم ايديولوجيو البرجوازية ان الملكية الخاصة كانت دائماً موجودة . ولكن التاريخ يكذب هذا الزعم ، ويؤكد ان

جميع الشعوب قد مرت بمرحلة المشاعية البدائية التي قامت على الملكية المشتركة ولم تعرف الملكية الخاصة .

التصورات الاجتماعية في العصر البدائي

في الاصل ، لم يكن الانسان البدائي المرهق باعباء الحاجة ومصاعب الكناح في سبيل البقاء قد انفصل تماما عن الطبيعة المحيطة به . فلم يقم في ذهنه خلال احقاد متطاولة اي مفهوم اولى متماسك الاجزاء لا عن ذاته ولا عن شروط وجوده الطبيعية .

ولم تظهر عنده الا تدريجيا تصورات جد محدودة وبدائية عن ذاته وعن شروط حياته . فلم يكن ثمة بعد من مجال للمفاهيم الدينية التي يدعى المدافعون عن الدين انها ملزمة للموحدان البشري منذ الازل . ولكن فيما بعد اخذ الانسان البدائي ، بسبب عجزه عن فهم وتفسير ظاهرات الطبيعة والحياة الاجتماعية ، يتصور العالم مأهولا بالكائنات الخارقة وبالارواح والقوى السحرية . فكان يتصور ان لقوى الطبيعة ارواحا تحركها . وهذا ما سمي بعبادة الارواح (١) .

ومن هذه المفاهيم المشوهة عن الانسان والطبيعة ولدت الاساطير البدائية والديانة البدائية التي يتمثل فيها مذهب التساوي المطلق في النظام الاجتماعي . فذلك الانسان ، الذي كان يجهل التقسيم الطبقي ويجهل تفاوت الثروات في الحياة الواقعية ، لم يكن يقسم عالم الارواح الوهمي الى مراتب متسلسلة ، بل كان يقسم الارواح الى ارواح مألفة وارواح غريبة ، ارواح صالحة وارواح شريرة . اما تقسيم الارواح حسب رتب متسلسلة بعضها فوق بعض فيعود الى عصر تفكك المشاعية البدائية .

كان الانسان يشعر انه مرتب بالعشيرة اربطا سميما . ولم يكن يتصور نفسه خارجا عنها . وكانت عبادة الاسلاف المشتركين هي الانعكاس الفكري لهذه

(١) animisme من اللاتينية *animus* وتعني : الروح او النفس .

الحالة . وانه لامر ذو مغزى ان كلام « أنا » وضمير الملكية المتكلم المفرد (١) ! يظهر في اللغة الا فيما بعد . لقد كان للعشيرة على كل عضو من اعضائها سلطة واسعة الى ما لا حد له . ولكن تفكك المشاعية البدائية رافقه نشوء وانتشار مفاهيم مرتكزة على الملكية الخاصة ، الامر الذي تشهد به الاساطير والافكار الدينية بشكل جلي . وفي العصر الذي استقرت فيه علاقات الملكية الخاصة وبدأ التفاوت في الثروات يرسع ويشتد ؛ نشأت في عدة قبائل عادة مؤداها اضفاء صفة القدسية « طابو » (٢) على الممتلكات التي استولى عليها زعماء الاسر الفنية . (تطبق الكلمة طابو (Tabou) في جزر المحيط الهادئ على كل ما وقع عليه الحظر ومنع استعماله من قبل العموم) . ومع تفكك المشاعية البدائية وظهور الملكية الخاصة كرس الحظر الديني العلاقات الاقتصادية الجديدة وعدم التساوي في الثروات .

(١) كقولك كتابي وعصايك الخ ...

Tabou (٢)

الفصل الثالث

أسلوب الانتاج القائم على الرق

نشأة الرق

الرق هو تاريخياً أول أشكال الاستثمار وأشدّها غلظة وفظاظة . وقد وجد عند جميع الشعوب تقريباً .

تم الانتقال من نظام المشاعية البدائية إلى نظام الرق في بلدان الشرق ، أول الأمر . وكان أسلوب الانتاج القائم على الرق سائداً في بلاد ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور الخ) وفي مصر والهند والصين ، من الألف الرابعة إلى الألف الثانية قبل عهمنا . ثم ساد في بلاد ما وراء القوقاز (أورارتو) ، خسلاً الألف الأولى قبل عصرنا . وقد وجدت في خوارزم دولة قوية قائمة على الرق ، استمرت من القرنين الثامن والسابع قبل عصرنا إلى القرنين الخامس والسادس من هذا العصر . إن حضارة بلدان الشرق القديم التي كان يسودها الرق قد أثرت تأثيراً عظيماً على الشعوب الأوروبية .

بلغ أسلوب الانتاج القائم على الرق أوجهه في اليونان بين القرن الخامس والقرن الرابع قبل عصرنا . ثم تطور الرق في آسيا الصغرى وفي مصر ومقدونيا (من القرن الرابع إلى القرن الأول قبل عصرنا) . وبلغ أعلى درجات تطويره في روما من القرن الثاني قبل عصرنا إلى القرن الثاني من هذا العصر .

ليس الرق أول الأمر طابعاً أبويَا ، منزليَا . وكان العبيد قليلاً العدد نسبياً . ولم يكن عمل الرقيق يشكل بعد أساس

الانتاج ، ولا يلعب الا دورا مساعدا في الاقتصاد الذي بقي هدفه تأمين حاجات الاسرة البطريركية الكبرى التي لم تكن تعرف التبادل تقريبا . ومذ ذاك ، كانت للسيد على عبيده سلطة غير محدودة ، ولكن ميدان تطبيق عمل الرقيق كان محدودا .

ان انتقال المجتمع الى نظام الرق يعود الى تقدم القوى المنتجة ، والى تطور التقسيم الاجتماعي للعمل وتطور التبادل . لقد فتح الانتقال من الادوات الحجرية الى الادوات المعدنية ميادين جديدة للعمل البشري . فان اختراع كير الحداد . جعل في الامكان صنع ادوات من الحديد ذات صلابة لا عهد للناس بها من قبل . واتاحت الفأس الحديدية احياء الاراضي المقطأة بالغابات والادغال واعدادها للزرع . وفسح المحراث المجهز بسكة من حديد المجال لزراعة مساحات واسعة نسبيا . واخلى الاقتصاد البدائي القائم على الصيد الميدان للزراعة وتربية الماشي . وظهرت الحرف الى الوجود .

وفي الزراعة التي ظلت اهم فروع الانتاج ، تحسنت طرق الزرع ، وطرق تربية الماشي . ففرست نباتات جديدة : الكرمة والكتان والنباتات الزيتية الخ . ونمت قطعان الماشية بسرعة عند الاسر الفنية . واصبحت العناية بالماشية تتطلب ، على الدوام ، مزيدا من اليدى العاملة . وتطورت الحياكة ، وفن معالجة المعادن ، وصنع الفخار وسائل الحرف الاخرى . فالحرفية التي كانت سابقا من المشاغل الثانوية للفلاح ومربي الماشي اصبحت ، بالنسبة الى كثرين ، ميدان نشاط مستقل . وهكذا انفصلت الحرفية عن الزراعة . وكان هذا هو التقسيم الاجتماعي الكبير الثاني للعمل .

ومع تقسيم الانتاج الى فرعين اساسيين : الزراعة والحرفية ظهر الانتاج المعد مباشرة للتبادل ، الا انه ، في الحقيقة ، كان لا يزال ضعيف التطور . وادى ارتفاع انتاجية العمل الى ازدياد كمية المنتوج الفائض ، الامر الذي اتاح لاقليـة في المجتمع ، بسبب وجود الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ان تقدس ثروات ، وأن

تخضع بواسطتها الاكثرية الكادحة للاقلية المستثمرة ، وان تحول الشغيلة الى عبيد ارقاء .

كان الاقتصاد في نظام الرق اقتصادا طبيعيا في الدرجة الاولى . ويقصد بالاقتصاد الطبيعي الاقتصاد الذي لا تكون ثمرات العمل فيه موضوع تبادل ، بل تستهلك في الاستثمار نفسها . ولكن في ذات الوقت كان التبادل يتطور . لقد كان الحرفيون ينتجون في بادئ الامر بناء على الطلب، ثم اخذوا ينتجون للسوق . ولكن ، رغم ذلك ، استمر كثيرون منهم ، خلال زمن طويل على زرع قطع صغيرة من الارض لتدارك حاجاتهم . اما الفلاحون الذين كانوا يعيشون ، على الاكثر ، في ظروف اقتصاد طبيعي ، فقد كانوا ، مع ذلك ، مضطرين الى بيع جزء من محاصيلهم في السوق لشراء حاجياتهم من الحرفيين ، ولدفع الضرائب . وهكذا تحول قسم من منتجات عمل الحرفيين وال فلاحين ، بشكل تدريجي ، الى بضائع .

ان **البضاعة** هي نتاج يصنع لا لاستهلاكه مباشرة بل للتبادل به ، اي لبيعه في السوق . والانتاج لاجل التبادل هو الصفة التي تميز **الاقتصاد البضاعي** . وهكذا سجل انفصال الحرفة عن الزراعة وبروز الحرفة كنشاط مستقل ، مولد الانتاج البضاعي . عندما كان التبادل ما يزال شيئا عارضا ، كان الناس يتبادلون نتاج عمل لقاء اخر بصورة مباشرة . ولكن لما اتسعت المبادلات وانتظمت ، برزت الى الوجود ، شيئا فشيئا ، بضاعة كانت تبادل لقاءها ، بكل رضى ، جميع السلع الاخرى . وهكذا ظهر النقد . فالنقد هو البضاعة العامة الشاملة التي تستعمل لتقدير جميع السلع الاخرى ، وتلعب دور الوسيط في المبادلات . وكان من نتائج نمو الحرف وتطور التبادل نشوء المدن . فالمدن قد وجدت منذ اقدم العصور ، مع ظهور اسلوب الانتاج القائم على الرق . لم تكن المدينة تميز عن القرية في بادئ الامر الا قليلا جدا . ولكن الحرفة والتجارة تمركزتا فيها شيئا فشيئا . واصبحت مشاغل اهل المدن واسلوب حياتهم باعثا على ازدياد

الفوارق بين المدن والارياف . وهكذا بدأ الانفصال بين المدينة والقرية وبرزت خطوط التعارض بينهما .

ومع ازدياد مقدار البضائع المعدة للتبدل كانت حدود التبدل الاقليمية تتسع بدورها ايضا . وظهر تجار كانوا ، في سبيل الحصول على ربح ما ، يشترون البضائع من المنتجين وينقلونها احيانا الى اسواق بعيدة عن مكان انتاجها ، لبيعها للمستهلكين .

ادى اتساع الانتاج والتبدل الى ازدياد التفاوت في الثروات . فكانت النقود وحيوانات الجر وادوات الانتاج والبذر تتدفق بين ايدي الاغنياء . وكان الفقراء يضطرون بشكل متزايد للجوء الى هؤلاء في سبيل الحصول على قرض عيني ، في الغالب ، وتقدي ايضا ، في بعض الاحيان . وكان الاغنياء يغرونهم ادوات الانتاج والبذر والمال ، ثم يتسلطون عليهم ويحيلونهم الى وضع كوضع الارقاء ويجردونهم من ارضهم في حالة عدم وفاء الدين . وهكذا ولد الربا الذي كان يجلب لبعض الناس مزيدا من الثروات ، ولاخرين خضوع المدين .

اصبحت الارض بدورها ملكا خاصا . وببدأ الناس يبيعونها ويرهونها . وكان على المدين اذا عجز عن دفع دينه للمرابي ، ان يتخلص عن ارضه وان يبيع اولاده ويبيع نفسه ويصبح واياهم عبيدا ارقاء . وفي بعض الاحيان ، كان كبار المالكي الاراضي يتذرون بحجج من الحجج ليستولوا على المروج والمراعي العائد للمساعييات الريفية ...

وهكذا تمركزت ملكية الاراضي والمال وجمهور الارقاء بين ايدي اغنياء الملاكين . وبينما كانت الاستثمارات الفلاحية الصغيرة تسير سيرا مطربدا نحو الخراب ، كان الاقتصاد القائم على الرق يقوى ويتسع ويمتد الى جميع فروع الانتاج . يقول انجلز :

« ان نمو الانتاج باستمرار ، مع نمو انتاجية العمل ، قد زاد من قيمة قوة العمل البشرية . والرق الذي كان ، في المرحلة السابقة ، ما يزال في بدئه ، وما يزال مشتتا متفرق ، اصبح الان عنصرا رئيسيا من عناصر النظام الاجتماعي . فلم

يبق الارقاء مساعدين ثانويين ، بدل اصبعوا يرجون بالعشرات في اعمال العقول وفي الورشات » (١) .

وهكذا بات وجود المجتمع ، بعد اليوم ، قائما على عمل العبيد الارقاء . وانقسم المجتمع الى طبقتين كبيرتين متضادتين : طبقة العبيد الارقاء وطبقة مالكي الارقاء .

وهكذا نشأ اسلوب الانتاج القائم على الرق .

كان الناس في عهد نظام الرق يقسمون الى احرار وعبيد . وكان الاحرار يتمتعون بجميع الحقوق المدنية والسياسية ويحقق التملك (ما عدا النساء ، فقد فرضت عليهن ، فعلا ، حالة كحالة العبيد) اما العبيد فكانوا محرومين من هذه الحقوق ، كما كان الانساب الى طبقة الناس الاحرار محظورا عليهم . وكان الناس الاحرار يقسمون بدورهم الى طبقتين : كبار مالكي الاراضي الذين كانوا في الوقت نفسه كبار مالكي العبيد ، وصفار المنتجين (ال فلاحين والحرفيين) الذين كان اكثراهم يسارا يعتمدون ايضا على عمل الرقيق ويمتلكون عبيدا . اما الكهنة الذين كانوا يلعبون دورا هاما في عصر الرق فكانوا بحكم او ضاعفهم مرتبطين بطبقة كبار مالكي الاراضي والعبيد .

وما عدا التناقض الطيفي بين السادة والعبيد ، كان هناك تناقض طبقي اخر : بين كبار مالكي الاراضي وال فلاحين . ولكن . نظرا الى ان عمل الرقيق الذي كان اقل الاعمال كلفة قد امتد ، مع تطور نظام الرق ، الى معظم فروع النشاط واضجع يؤلف الاساس الرئيسي للإنتاج ، فقد اضحت التناقض بين السادة والعبيد هو التناقض الاساسي في المجتمع .

ان انقسام المجتمع الى طبقات جعل تشكيل الدولة شيئا ضروريا . ومع تطور التقسيم الاجتماعي للعمل وتطور التبادل ،

(١) انجلز : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة صفحة ١٤٩ ، المنشورات

الاجتماعية - باريس ١٩٥٤ .

أخذت العشائر والقبائل تتقارب وتتحد في جامعات . وتفيرن طبيعة النظم العشائرية ، وفقدت أجهزة النظام العشائري تدريجيا صفتها الشعبية وتحولت إلى أجهزة للسلط على الشعب ، أجهزة هدفها ابتزاز واضطهاد قبائلها نفسها والقبائل المجاورة . واصبح الشيوخ والزعماء العسكريون في العشائر والقبائل أمراء وملوكا . كانت سلطتهم فيما سبق منبثقة من صفتهم كمنتخبين بايعتهم عشيرة او مجموعة من العشائر . ولكنهم أصبحوا بعد الان ، يستغلون سلطتهم للدفاع عن مصالح الفئات المالكة ولکبح مواطنיהם السائرين إلى الخراب ، ولقمع العبيد . وفي سبيل هذه الغاية ايضا نشأت الفصائل المسلحة ، والمحاكم ، والاجهزة الراجرة .

هكذا ولدت سلطة الدولة . يقول لينين :

« عندما ظهر الشكل الأول لانقسام المجتمع إلى طبقات ، اي عندما ظهر نظام الرق ، ومنذما استطاعت طبقة من الناس ، وقفت نفسها على اقسى انواع العمل الزراعي ، ان تنتج بعض الفائض ، وعندهما استولى مالك العبيد على هذا الفائض الذي لم يكن ضروريا حتما لعيشة المبد البائسة ، وعندما رسم ، على هذه الصورة ، وجود هذه الطبقة من ملاكي العبيد ، ولكي تستطيع هذه الطبقة ان ترسخ ، عند ذلك، ومن أجل ذلك، اصبح لزاما ان تظهر الدولة الى الوجود » (١) .
لقد نشأت الدولة لتکبع الاكثرية المستثمرة لمصلحة الاقلية المستثمرة .

لعبت دولة عهد الرق دورا عظيما في تطوير وتوطيد علاقات الانتاج في المجتمع القائم على الرق . فكانت تبقى جموع العبيد في حالة الطاعة والانقياد . وهي قد كبرت وتشعبت واصبحت جهازا واسعا للسلط والعنف موجها ضد الجماهير الشعبية . اما ديموقراطيات اليونان وروما القديمة التي تشهد بها كتب

(١) لينين : « في الدولة » ، الدولة والثورة صفحة ١١٦ المنشورات الاجتماعية ١٩٤٦ .

التاريخ البرجوازية فلم تكن ، في الأساس ، سوى ديموقراطيات كبار ملوك العبيد .

علاقات الانتاج في مجتمع الرق . وضع العبيد

ان اساس علاقات الانتاج في مجتمع الرق كان قوامه ملكية السيد لا لوسائل الانتاج فقط بل للمنتجين ايضا ، اي للعبيد . وكان ينظر الى العبد كشيء من الاشياء . وكانت لسيده عليه سلطة مطلقة . فلم يكن العبد يعاني الاستثمار فقط ، بل كان يمكن بيعه وشراؤه كالماشية ، بل كان يمكن حتى قتله هدرا بلا عقاب . واذا كان العبد في عهد الرق البطريكي يعتبرا على انه عضو من الاسرة ، فإنه ، مع تطور اسلوب الانتاج القائم على الرق ، لم يبق منظورا اليه حتى كانسان . كتب ماركس :

« لم يكن العبد يبيع قوة عمله لمالك العبيد ، كما ان الثور لا يبيع نتاج عمله لل فلاح . فالعبد يباع بما فيه قوة عمله ، مرة واحدة ، الى مالكه » (١) .

كان عمل الرقيق متسمًا بطابع الاكراد السافر . فكان العبيد يجبرون على العمل بافطع الوسائل . كانوا يدفعون الى العمل بضرب السياط ، ويعاقبون بقسوة وحشية لا قل هفوة . كانوا يوسمون بميسم خاص لكي يسهل العثور عليهم اذا هربوا . وكثيرون منهم كانوا يفلدون ليل نهار طوقا من الحديد في اعناقهم يحفر عليه اسم سيدهم .

كان السيد يستولي على كامل ثمرات عمل الرقيق ولا يعطي العبيد الا حدا ادنى من مقومات العيش ، بحيث لا يموتون جوعا ، لكي يتمكنوا من متابعة العمل لاجله . اقد كان يستحوذ على الانتاج الفائض ، بل على قسم كبير ايضا من الانتاج الضروري .

(١) ماركس : العمل بالاجرة والرأسمال صفحة ٣٢ – المنشورات الاجتماعية.

ان تطور اسلوب الانتاج القائم على الرق كان يرافقه دائماً طلب متزايد على العبيد . وفي بعض البلدان لم يكن للعبيد عائلات ، بصورة عامة . وكان الاستثمار الوحشي يُؤول بهم الى الفناء السريع .

ومن هنا كانت الحاجة الى افواج جديدة منهم بصورة مستمرة . فكانت **الحرب** مصدراً كبيراً للحصول على العبيد . ولذا كانت دول الشرق القديم القائمة على الرق في حرب لا تنتهي للاستيلاء على شعوب أخرى . وتاريخ اليونان القديمة حافل بالحروب التي كانت تجري بين المدن ، او بين المتروبول والمستعمرات ، او بين الدول اليونانية والشرقية . وقد دأبت روما على شن الحروب ، وعندما بلغت اوج عظمتها ، اخضعت القسم الاعظم من العالم المعروف آنذاك . ولم يكن الاسترقاق يقتصر على الجنود الذين يقعون في الاسر ، بل كان يشمل ايضاً قسماً كبيراً من سكان البلاد المفتوحة .

كانت المقاطعات والمستعمرات تقدم العبيد ايضاً . كانت تقدم هذه « **البضاعة الحية** » مثلاً تقدم غيرها من البضائع سواءً . وكانت تجارة الرقيق فرعاً من اوفر فروع النشاط الاقتصادي كسباً واكثرها ازدهاراً .

وقد اقيمت ، لهذه الغاية ، مراكز خاصة ، واسواق يلتقي فيها البائعون والشارون القادمون من بلدان نائية .

كان اسلوب الانتاج القائم على الرق يفتح لنمو القوى المنتجة مجالات اوسع مما تفتحه المشاعية البدائية . فان تمركز عدد كبير من العبيد في حوزة الدولة القائمة على الرق ، وفي حوزة مالكي العبيد كان من شأنه ان يتتيح تطبيق التعاون البسيط على نطاق واسع جداً . وتشهد بذلك الاعمال الجبارية التي تمت في العهد القديم على يد شعوب الصين والهند ومصر وایطاليا واليونان وبلاد ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى وغيرها : كشبكات الري ، والطرق ، والجسور ، والحسون ، والنصب التذكارية .

كان التقسيم الاجتماعي للعمل يتطور فيؤدي الى الاختصاص

في الزراعة والحرف ، وبالتالي إلى زيادة انتاجية العمل .
في اليونان كانت اليد العاملة الرقيق تستخدم في الحرف على نطاق واسع . ظهرت إلى الوجود ورشات كبيرة تدعى « أرغاستيات » (١) ، كان يعمل فيها معاشرات من العبيد . وكان عمل الرقيق يستخدم أيضا في البناء واستخراج فلزات الحديد والفضة والذهب . وفي روما كان عمل الرقيق منتشر جدا في الزراعة . فقد كانت الإريستو قراطية الرومانية تملك مساحات واسعة جدا تدعى « لاتيفونديا » (٢) ، اقطاعات ، يكدر فيها مئات بل الوف من العبيد . وقد تكونت هذه الاقطاعات من الاستئثار باراضي الفلاحين ومن اغتصاب الاملاك العامة .

كان رخيص عمل الرقيق وميزات التعاون البسيط من العوامل التي تمكّن الاقطاعات الكبرى من إنتاج القمح والمحاصيل الزراعية الأخرى بسعر ادنى من سعر استثمارات الفلاحين الاحرار الصغيرة . ولذا كان صغار الفلاحين يجردون من ارضهم ، او يحالون إلى عبيد ارقاء ، او ينزعون إلى المدينة لينضموا إلى صفوف الفئات البائسة من الاهلين .

كان التضاد الذي ذر قرنه بين المدينة والريف منذ الانتقال من نظام المشاعية البدائية إلى نظام الرق ، يزداد اشتدادا باستمرار . وأصبحت المدن مراكز تجمع الإريستو قراطية مالكة الارقاء ، وللتجار ، والمرابين ، وموظفي الدولة القائمة على الرق وكان هؤلاء جميعا يستثمرون جماهير السكان الفلاحين .

بلغ العالم القديم ، بفضل عمل الرقيق ، درجة مرموقة من التطور الاقتصادي والثقافي . ولكن ذلك النظام القائم على الرق لم يكن بوسعه ان يخلق شروط تقدم فني ذي بال . فعمل العبد الرقيق كان يتميز بمردود شديد الانخفاض . لأن العبد لم يكن يولي عمله اي اهتمام ، بل كان يبغض العمل الذي اجبر على ادائه .

وكثرًا ما كان العبد يعبر عن احتجاجه وغضبه بتخريب أدوات العمل . ولذلك ما كانوا يعهدون إليه إلا بأدوات غليظة من العسير تخريبها .

بقي الانتاج في مستوى تكنيكى منحط جداً . ورغم أن العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية قد أحرزت بعض التطور فهي لم تطبق تقريباً في الانتاج . وإذا كان بعض المخترعات التكنيكية قد استخدم ، فقد ظل ذلك مقصورة على أغراض الحرب وفي أعمال البناء . إن أسلوب الانتاج القائم على الرق قد ظل ، خلال سيطرته التي دامت قرونًا طويلة ، مكتفياً بالآدوات اليدوية التي أخذها عن الزارع الصغير والحرفي ، ولم يتجاوز قط مرحلة التعاون البسيط . وهكذا بقيت القوة الرئيسية المحركة هي قوة الإنسان الجسدية وقوة الحيوانات الأليفة .

إن تعميم استخدام اليد العاملة الرقيق قد أتاح لمالكي الارقاء أن يلقوا على عبيدهم كل عباء العمل الجسماني . فكان مالكون الارقاء يحتقرن العمل وينظرون إليه على أنه نشاط لا يليق بالرجل الحر ، وكانوا يعيشون عيش الطفيليات . وكلما تطور الرق واتسع ، كانت تتعاظم جماهير الناس الاحرار الذين ينصرفون عن كل نشاط منتج . أما الشؤون العامة ، والعلم ، والفن ، فكان يهتم بها فقط قسم من فئة مالكي العبيد أصحاب الامتيازات، ومن بقية السكان الاحرار ، وقد بلغت درجة هامة من التدهور .

إن نظام الرق قد ولد التعارض بين العمل اليدوي والعمل الفكري وحفر هوة بينهما .

إن استثمار الأسياد لعبيدهم هو السمة الأساسية التي تميز علاقات الانتاج في مجتمع الرق . غير أن أسلوب الانتاج القائم على الرق له خصائص معينة في كل بلد .

في الشرق القديم ، كان رجحان الاقتصاد الطبيعي أكثر بروزاً منه في العالم اليوناني - الروماني . فكان عمل الرقيق مستخدماً ، على نطاق واسع ، في أملاك الدولة وأملاك كبار مالكي العبيد وأملاك المعابد . وكان الرق المنزلي منتشرًا كثيراً . وكان

اعضاء المشاعيات الريفية في الزراعة الصينية والهندية والبابلية والمصرية مستثمرين بصورة جماهيرية كاستثمار العبيد . وقد اتسع الرق الناجم عن الديون اتساعاً كبيراً . فعضو المشاعية الريفية الذي لا يسد دينه للمرابي او لا يسد بدل ايجار الارض للملك ، كان مجبراً على العمل وقتاً معيناً في ارض المرابي او الملك ، بصفة عبد مدین .

كانت الارض ، على الغالب ، في البلدان التي يسودها نظام الرق في الشرق القديم ، ملكاً للمشاعية او للدولة . وكانت هذه الاشكال من الماكية مرتبطة بنظام الزراعة القائم على الري . فالزراعة المروية في الودية النهرية كانت تتطلب ا عملاً كبيراً لبناء السدود والاقنیة والخزانات ولتجفيف المستنقعات . ومن هنا كان ضرورياً ان يتمركز بناء شبكات الري واستثمارها في نطاق مساحات واسعة من الارضي .

يقول انجلز :

« ان الري الاصطناعي هو الشرط الاول للزراعة فيها (في مناطق الشرق - ملاحظة من هيئة التعریب) والقيام بهذا هو من شأن المشاعيات او الولايات او الحكومة المركزية » (١) .

ومع تطور الرق ، تمركزت اراضي المشاعيات ، يوماً بعد يوم ، في يد الدولة . واصبح الملك الذي كانت له سلطة مطلقة هو المالك الاعلى للارض .

كانت دولة الرقيق المحتكرة لملكية الارض ، ترهق الفلاحين بالضرائب وتشغل كاهليهم بمختلف الاعباء ، وتحولهم ، بهذه الصورة، إلى منزلة العبيد . كان الفلاحون يبقون اعضاء في مشاعياتهم . ولكن المشاعية ، بسبب وجود الارض في يد الدولة القائمة على الرق ، أصبحت الاساس الدائم للاستبداد الشرقي ، اي انها

(١) كارل ماركس وفريدرريك انجلز : المراسلات ، المجلد الثالث . (رسالة من انجلز الى ماركس ، ٦ حزيران ١٨٥٣) .

اصبحت اساس سلطة ملكية مطلقة لا حسيب عليها ولا رقيب . وكانت الارистو قراطية الكهنوتية تلعب ايضا دورا هاما في بلاد الشرق التي يسودها نظام الرق . فالاملاك الواسعة التي تخصل العابد كانت قائمة على عمل الرقيق .

في ظل نظام الرق ، كان ملاكو العبيد ، في جميع البلدان ، ينفقون القسم الاعظم من عمل الرقيق ونتاجه ، بطريقة غير منتجة، متوكلا اشباع نزوات فردية ، وجمع الكنوز وبناء المنشآت العسكرية ، وتأليف الجيوش ، وتشييد وصيانة القصور والمعابد الفخمة . ان اهرامات مصر هي مثل صارخ على تبذير العمل بذلك الشكل الهائل ، في وجوه غير منتجة . ان جزءا ضئيلا فقط من عمل الرقيق ونتاجه كان يخصص لتوسيع الانتاج ، الذي كان تطوره من جراء ذلك ، بطبيئا جدا . كانت الحروب المدمرة تؤدي الى تحطيم القوى المنتجة وابادة قسم عظيم من السكان غير المحاربين ، ومحو حضارات بكمالها .

ان **القانون الاقتصادي الاساسي لنظام الرق** قوامه تحقيق منتوج زائد لمالكي العبيد ، وذلك باستثمار جماهير العبيد استثمارا وحشيا على اساس امتلاك العبيد امتلاكا تاما من جانب مالكي العبيد .

تطور التبادل . الرأسمال التجاري والرأسمال الربوي

بني اقتصاد الرق في جوهره اقتصادا طبيعيا . وكان ما ينتجه معدا ، على الاخص ، للاستهلاك مباشرة من قبل الملك العبيد ويطانته العديدة وخدمه ، ولم يكن معدا للتبادل . ومسع ذلك ، لعب التبادل دورا ازداد بروزا على الاخص في اوج نظام الرق . فكان جزء من المنتجات في بعض فروع الانتاج يباع في السوق بصورة منتظمة، وبعبارة اخرى ، كان يتحول الى بضاعة . ومع تقدم التبادل ، تعاظم دور النقد . وكانت البضاعة التي يتناولها التبادل اكثر من سواها هي التي تصبح عادة نقدا .

وقد قامت الماشية بهذه الوظيفة عند كثير من الشعوب ، ولا سيما عند الشعوب التي تتوافر على تربية المواشي . وقام بها عند شعوب أخرى الملح والقمح والفراء . ثم حل النقد المعدني ، شيئاً فشيئاً محل هذه الأشكال المختلفة من النقد .

ظهرت النقود المعدنية الأولى في الشرق القديم حيث وضعت موضع التداول على شكل سبائك من البرونز والفضة والذهب ، وذلك منذ الالف الثالثة والثانية قبل عصرنا . واتخذت شكل نقود مصروبة ابتداء من القرن السابع قبل عصرنا . وراجت في اليونان نقود حديدية قبل عصرنا بثمانية قرون . أما روما فلم تعرف ، حتى القرن الخامس والرابع قبل عصرنا ، سوى النقود النحاسية . وفيما بعد حل الفضة والذهب محل الحديد والنحاس بوصفهما نقداً .

كانت المدن اليونانية تتعاطى تجارة نشطة خصوصاً مع مستعمراتها (١) المبثوثة على طول شاطئ البحر المتوسط والبحر الأسود ، وكانت المستعمرات تزودها ، بصورة منتظمة ، بالعبد ، وهم قوة العمل الرئيسية ، كما تزودها بمواد الأولية ووسائل العيش : كالجلود والصوف والماشية والقمح والسمك .

وبالإضافة إلى تجارة الرقيق والبضائع الأخرى ، كانت نحارة وسائل الترف تلعب دوراً هاماً في روما كما في اليونان . وكانت شعوب الشرق القديم تقدم هذه الأشياء على سبيل الجزية ، بصورة رئيسية . وكانت التجارة مصحوبة بالنهب والقرصنة واستعباد المستعمرات .

لم يكن المال في ظل نظام الرق وسيلة لشراء البضائع وبيعها فحسب ، بل كان يستخدم أيضاً للابتلاء على عمل الغير عن طريق التجارة والربا . والمال الذي كان ينفق في سبيل استملك العمل الزائد ونتاجه يصبح رأسمالاً ، أي يصبح وسيلة للاستثمار . إن الرأسمال التجاري والرأسمال الربوي هما ،

(١) كلمة «مستعمرات» تختلف في ذلك العصر ، من حيث معناها ووضعها، عن المستعمرات في العصر الحديث ، حيث تطورت الرأسمالية إلى رأسمال مالي وأحتكارات . - هيئة التعریف .

تاريجيا ، اول اشكال الرأسمال . اما **الرأسمال التجاري** فهو الرأسمال الموظف في ميدان تبادل البضائع . فقد كان التجار يستولون عن طريق الشراء والبيع على قسم هام من الانتاج الزائد الذي يخلقه العبيد وصفار الفلاحين والحرفيون . واما **الرأسمال الربوي** فهو الرأسمال المستخدم على شكل قروض من النقد او من وسائل الانتاج او من سلع الاستهلاك بغية الاستيلاء على فائض عمل الفلاحين والحرفيين ، وذلك باستيفاء فوائد مرتفعة . كان المربون يقرضون المال الى الارистو قراطية ايضا ، وكانوا يحصلون بذلك على حصة من فائض الانتاج الذي يقدمه عمل العبيد لهذه الاريستو قراطية .

تفاهم التناقضات في اسلوب الانتاج القائم على الرق

كان الرق مرحلة ضرورية في تاريخ البشرية . يقول انجلز : « ان الرق فقط هو الذي جعل في الامكان تقسيم العمل ، على نطاق واسع، ما بين الزراعة والصناعة ، ثم فسح المجال وبالتالي ، امام العالم القديم ليبلغ الذروة ، في الحضارة اليونانية . فلو لا الرق لما كانت هناك دولة يونانية ولا فن وعلم يونانيان ، ولو لا الرق لما كانت هناك امبراطورية رومانية . ولو لا الاساس الذي قدمته الحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية لما وجدت كذلك اوروبا الحديثة » (1) .

فعلى عظام اجيال واجيال من العبيد الارقاء ، قامت وتفتحت تلك الحضارة التي كانت اساسا لتقدير الانسانية فيما بعد . ان كثيرا من فروع المعرفة كالرياضيات والفلك والميكانيك والهندسة المعمارية ، بلغت في العالم القديم ، درجة مرموقة من التطور . فبدائع الفن وروائع الادب والنحت والعمار التي خلقتها العصور القديمة ستبقى ، ابدا الدهر ، جزءا من كنوز الثقافة الانسانية .

(1) - انجلز : كتاب « انتي دوهرنغ » ، ص ٢١٣ .

غير ان نظام الرق كانت تمزقه تناقضات داخلية مستعصية افضت به في النهاية الى الهلاك . فشكل الاستثمار المتمثل بالاسترقاق كان يدمر القوة المنتجة الرئيسية في المجتمع الا وهي: العبيد الارقاء . وكان نضال هؤلاء ضد الاستثمار الوحشي الذي يعانونه يتفجر بشكل انتفاضات تتواتر بصورة متزايدة . وكان تكاثر العبيد الجدد بصورة مستمرة ، ورخص ثمنهم ، شرطا لوجود اقتصاد الرق . وكانت الحرب هي المصدر الكبير للحصول على العبيد . اما القوة العسكرية في مجتمع الرق فكان قوامها جماهير المنتجين الصغار الاحرار : الفلاحين والحرفيين الذين منهم كان يتتألف الجيش ، والذين كانوا يتتحملون العبء الرئيسي من الضرائب التي تستلزمها الحرب . ولكن الفلاحين والحرفيين كانوا يصابون بالخراب بسبب تلك الاعباء المرهقة التي كانت تشقق كواهلهم ، وبسبب مزاحمة الانتاج الكبير القائم على عمل الرقيق الذي كان ارخص كلفة . وكان التنافس وكان التناحر الذي لا حل له بين القطاعات (١) الكبيرة وبين استثمارات الفلاحين يتفاقم باستمرار .

ان زوال الفلاحين الاحرار قوض القوة الاقتصادية للدول القائمة على الرق ، وخصوصا روما ، كما قوض ايضا قوتها العسكرية والسياسية . فبعد الانتصارات جاءت الهزائم ، وبعد حروب الفتح جاءت الحروب الدفاعية . ونضب اليابوع الذي كان قد يزيد الدولة بالعبيد بدون توقف وبشمن رخيص . واخذت النواحي السلبية في عمل الرقيق تبرز باستمرار بشكل متزايد الوضوح . وتميز القرنان الاخيران من عهد الامبراطورية الرومانية ، بانحدار عام في الانتاج ، واختلت التجارة ، وحل الفقر باصقاع كانت غنية في ما مضى . وانخفض عدد السكان ، وانقرضت الحرف ، وخلت المدائن من ساكنيها .

اصبحت علاقات الانتاج القائمة على عمل الرقيق عقبات في طريق القوى المنتجة التي كانت تنمو في المجتمع . وعمل العبيد

(١) انظر الصفحة ٤٨ .

الذين لم يكن يهمهم امر الانتاج لا بكثير ولا بقليل ، قد استنزف ، امكانياته . وبات من الضروري تاريخيا تبديل علاقات الانتاج القائمة على الرق بعلاقات اخرى تفسح المجال لتبديل الوضع الاجتماعى للجماهير الكادحة التي هي القوة المنتجة الرئيسية . ان قانون التطابق الضروري بين علاقات الانتاج وطبيعةقوى المنتجة كان يتطلب تبديل العبيد بشفيلة يكون لهم بعض المصلحة في نتائج عملهم . ونظرا الى ان الانتاج الكبير القائم على الرق لم يبق مجزيَا، فقد اخذ صاحب العبيد يعتقد عبيده بصورة جماهيرية ، بعدما اصبح عملهم لا يدر له دخلا . وقسمت الاملاك الكبيرة قطعا صغيرة سلمت ، بشروط معينة ، اما الى عبيد سابقين وأما الى مواطنين كانوا في السابق احرارا ، فاصبحوا ، بعد الان ، مقيدين بانواع شتى من الفرائض التي ينبغي عليهم تأديتها للملك العقاري . لقد كان هؤلاء الزارعون الجدد مربوطين بارضهم وكان يمكن بيعهم معها . ولكنهم لم يبقوا عبيدا ارقاء .

وهكذا ، نشأت فئة جديدة من المنتجين الصغار الذين كانوا في وضع وسط بين الناس الاحرار والعبيد ، وكان لهم مصلحة في العمل الذي يقومون به . ان هؤلاء **المزارعين** (1) . كما كانوا يسمونهم ، هم الاسلاف لاقنان القرون الوسطى .

وهكذا ، في قلب مجتمع الرق نفسه ، اخذت في الظهور عناصر اسلوب جديد للإنتاج ، هو الاسلوب القطاعي .

نضال المستثمرين الطبقي ضد مستثمريهم انتفاضات العبيد . نهاية نظام الرق

يدل تاريخ المجتمعات القائمة على الرق في الشرق القديم واليونان وروما على ان النضال الطبقي الذي خاضته الجماهير المستعبدة ضد مسطهديها كان يشتد مع تطور اقتصاد الرق .

و كانت انتفاضات الارقاء تندمج مع النضال الذي كان الفلاحون الصغار المستثمرن يخوضونه ضد فئة اصحاب الامتيازات من كبار مالكي العبيد والاراضي .

ان التناقض بين صغار المنتجين وكبار ملاكي الاراضي قد ادى، منذ بدء تطور المجتمع القائم على الرق ، الى نشوء حركة ديمقراطية بين الناس الاحرار كانت تستهدف الغاء الديون وتقسيم الاراضي ونزع الامتيازات من اريستوقراطية الارض ، واعطاء السلطة الى الشعب (٢) .

كانت الامبراطورية الرومانية مسرحا لانتفاضات عديدة قام بها العبيد .

و كانت اهم انتفاضة بينها تلك التي قادها سبارتاکوس (٧٤ - ٧١ قبل عصرنا) ، فاقترن باسمه امجد فترة من نضال العبيد ضد اسيادهم .

لقد تعددت انتفاضات العبيد خلال القرون . وكان الفلاحون الذين اصابهم الخراب ينضمون الى العبيد في نضالاتهم . وقد اندلعت اهم هذه الانتفاضات في القرنين الثاني والاول قبل عصرنا ، وفي القرنين الثالث والخامس من هذا العصر . وقد قمع مالكو العبيد هذه الانتفاضات بمنتهى الوحشية .

أوهنت انتفاضات الجماهير المستمرة ، ولا سيما انتفاضات العبيد ، بأس روما وجبروتها . وكانت هذه الوثبات الداخلية مصحوبة ، بصورة متزايدة ، بوثبات خارجية . فبينما كان سكان البلاد المجاورة ، الذين جيء بهم ارقاء الى روما ، يعلنون العصيان في حقول ايطاليا ، كان مواطنوهم الذين بقوا احرارا يهاجمون الامبراطورية ويخترقون حدودها ، ويقلبون السيطرة الرومانية . كل هذه الظروف عجلت في نهاية نظام الرق في روما .

لقد بلغ اسلوب الانتاج القائم على الرق أوجه الاعلى في عهد الامبراطورية الرومانية . وسجل سقوط الامبراطورية الرومانية نهاية نظام الرق بمجموعه .

ان الاقطاعية هي التي خلفت نظام الرق .

المفاهيم الاقتصادية لعصر الرق

ووجدت المفاهيم الاقتصادية لعصر الرق التعبير عن نفسها في كثير من المؤلفات التي خلفها لنا الشعراء وال فلاسفة والمؤرخون ورجال الدولة والشخصيات العامة الذين لم يكن الرقيق في نظرهم انسانا بل كان مجرد شيء من الاشياء بين يدي سيده . وكان عمل الرقيق محترقا ، وقد اصبح العمل شيئا فشيئا قسمة العبد ، ولذلك صار ينظر الى العمل على انه نشاط لا يليق بالرجل الحر .

تدل شريعة الملك حمورابي (الجيل السابع عشر قبل عهدهنا) ، على المفاهيم الاقتصادية التي كانت سائدة في مجتمع الرق البابلي . فهذه الشريعة تحمي الملكية وحقوق الاغنياء والنبلاء ومالكي العبيد والاراضي . فكل من يخبيء عبدا فارا يتعرض للموت . والفلاح الذي لم يدفع دينه لدائه ، او اجرة الارض للملك العقاري ، ملزم بان يقدم امرأته او ابنته او ابنته ليصبحوا عبيدا عند الدائن او الملك الى ان يسددوا الدين بعملهم . اما قوانين مانو ، في الهند القديمة ، فهي مجموعة من الوصايا الاجتماعية والدينية والخلقية التي تكرس الرق . فالعبد لا يتمتع باية ملكية . وكان القانون يعاقب بالموت كل من « يخبيء في منزله عبدا فارا » .

كانت افكار الطبقات المسيطرة تنعكس في الدين . فان البوذية ، التي انتشرت في الهند منذ القرن السادس قبل عهدهنا ، كانت تعظم بالاستسلام وتبشر بعدم مقاومة العنف ، وبالخضوع امام الطبقات المسيطرة ، وقد استخدمت ذلك اristocratie الرق لتقوية سيطرتها .

ان مفكري العصور القديمة البارزين انفسهم ما كانوا يستطيعون ان يتصوروا مجتمعا بدون عبيد . وهكذا ، فان الفيلسوف اليوناني افلاطون (القرن الخامس والرابع قبل عهدهنا) الذي الف اول طوبائية (1) معروفة ، قد ابقى على الرق في جمهوريته الفاضلة . فقد كان ينبغي ، في نظر افلاطون ، ان يضمن عمل العبيد والزراع والحرفيين مقومات العيش الضرورية للطبقة العليا، طبقة الحكم والمحاربين .

(1) الطوبائية معناها باليونانية مكان لا وجود له اي خيالي . والمقصود هنا الاشارة الى مؤلف افلاطون « الجمهورية الفاضلة » ، حيث يحاول البرهنة على ان المجتمع يجب ان يقوم على ثلاث مراتب : الفلسفة الحاكمين ، والمحاربين ، ثم الزراع والحرفيين والعبيد . هيئة التعریف .

وفي نظر ارسطو ، اكبر مفكري العصور القديمة (القرن الرابع قبل عهدهنا)، كان الرق ضرورة ابدية للمجتمع . لقد اثر ارسطو تأثيرا كبيرا على الحياة الفكرية في العصور القديمة والقرون الوسطى . بيد انه ، على الرغم من ارتفاعه فوق عصره، عند صوغه فرضياته وتنبؤاته العلمية ، يبقى ، فيما يخص مسألة الرق ، اسيراً لفكار المجتمع السائدة في زمانه . لقد كان جوهر تفكيره على الصورة التالية : كما ان دفة المركب بالنسبة للملاح اداة بدون حياة ، فالعبد اداة لها حياة . ولو كانت الادوات تعمل وحدها حسب اوامرنا ، لو كانت الصيادي (١) مثلاً تنسيج وحدها ، لما كانت هناك حاجة الى العبيد . ولكن ، بما ان عدداً من المشاغل يتطلب عملاً خشناً ، قليل التعقيد ، فان الطبيعة ، في حكمتها ، قد اوجدت العبيد . لقد ولد بعضهم ليكونوا عبيداً وولد آخرون ليقودوهم . فعمل الرق يوفر للناس الاحرار اوقات فراغ تتيح لهم ان يتکاملوا . فكل فن السيد ينحصر اذن في استخلاص اوفر النتائج من عبيده .

ان ارسطو هو الذي ابتكر مصطلح *aïkonomia* (٢) . ففي زمنه حققت المبادلة والتجارة والربا بعض التطور ، ولكن الاقتصاد بقي في مجمله اقتصاداً طبيعياً استهلاكياً . كان ارسطو يعتبر ان الاموال المكتسبة بواسطة الزراعة والحرفة هي الوحيدة المشروعة . لقد كان من انصار الاقتصاد الطبيعي . ولكنه كان يفهم طبيعة التبادل الواقعية . فيجد ان المبادلة لاجل الاستهلاك امر طبيعي تماماً . ذلك ، على حد قوله ، « لأن الناس يملكون عادة بعض الاشياء بمقادير تفيس عن حاجاتهم وبعض الاشياء الاخرى بمقادير ادنى من هذه الحاجات » . وكان يدرك ان النقد ضروري للمبادلات .

وفوق ذلك كان ارسطو يشجب التجارة اذا كان هدفها الربح ، كذلك كان يشجب الربا . وكان يقول ان هذه الانواع من النشاط ، لا تضع اي حد في طريق الابراء ، بخلاف الزراعة والحرفة .

توصل اليونانيون القدماء أنفسهم الى تكوين فكرة عن تقسيم العمل وعن دور هذا التقسيم في الحياة الاجتماعية . فان افلاطون ، مثلاً ، قد جعل تقسيم العمل اساساً للنظام الذي وضعه لجمهوريته الفاضلة .

(١) الصيادي مفردها صياص ، وتعني المكوك – هيئة التعريب .

(٢) لقد مر تفسير هذا المصطلح في المدخل ، ومعناه اقتصاد المنزل – هيئة التعريب .

كذلك كانت افكار الرومان في موضوع الاقتصاد منبثقة من اسلوب الانتساج القائم على الرق في ذلك الزمن .

فكان الكتاب ورجال السياسة ، وهم الذين يمثلون عقلية طبقة مالكي العبيد، يعتبرون العبيد مجرد ادوات بسيطة . فان الكاتب الكبير التأليف فارون (القرن الاول قبل عصرنا) الذي ألف كتابا عن الزراعة مخصصا لمالكى العبيد ، قد قسم الادوات تقسيما مشهورا على الوجه التالي : ١) ادوات خرساء (عربات النقل) ، ٢) ادوات ترسل اصواتا بدون الفاظ (الماشية) ، ٣) ادوات لها موهبة النطق (العبيد) . وفي هذا التقسيم لم يكن الكاتب يعبر الا عن الاراء المقبولة بصورة عامة ، لدى مالكي العبيد .

وكان فن ادارة العبيد يشغل الذهان في روما كما في اليونان . يروي المؤرخ بلوتارك (القرن الاول والثاني من عصرنا) ان كاتون ، السيد « الانموذجي » كان يستري عبيده وهسم بعد في دور الحداة ، اي « في سن يتقبلون فيها التربية والتزويف بسهولة » ، على غرار صفار الكلاب والمهاوى . ويشير بلوتارك ايضا الى ان كاتون هذا « يبتكر باستمرار وسائل جديدة لتفذية الشقاوة والانقسام بين العبيد ، لانه كان يخشى حسن التفاهم بينهم ويعتبره شيئا خطرا » .

وفيما بعد ، ازداد في الامبراطورية الرومانية ، انهيار الاقتصاد القائم على عمل العبيد الاجباري واشتد تفككه .

وقد عبر الكاتب اللاتيني كولوميل (القرن الاول من عصرنا) عن برمه بالوضع بقوله : « ان العبيد يلحقون بالحقول ضررا فادحا . فهم يعمدون الى اعارة الشiran ويسئون العناية بالقطيع ، ويحرثون بطريقة تدعو الى الرثاء » . وقال بلين القديم الذي عاصر كولوميل : « ان الاقطاعات الكبيرة قد اضاعت ايطاليا والاقاليم » .

كان الاقتصاد الطبيعي الذي لا يبادر فيه السيد الا على الفائض من انتاجه هو الشيء المألوف عند الرومان كما كان عند اليونانيين . وكانت مؤلفات تلك الحقبة تحمل احيانا على الارباح التجارية المرتفعة وعلى الفائدة الربوية . ولكن ذلك لم يكن ليمنع التجار والمربين من جمع الثروات الطائلة .

وفي الحقبة الاخيرة من التاريخ الروماني ارتفعت اصوات تستنكر الرق وتعلن المساواة الطبيعية بين الناس . وغني عن القول ان هذه الافكار لم تلق اي صدى عند الطبقة المسيطرة ، وتعني بها طبقة مالكي العبيد . اما الارقام فقد كانوا مرهقين

بأثقال وضعهم البائس ، وكانوا من الخمول والجهل بحيث لا يقونون على صوغ عقلية لهم اكثراً تقدماً من الافكار البالية التي كانت تحملها طبقة مالكي العبيد . وهذا ، في كل حال ، كان سبباً من الاسباب التي طبعت انتفاضات الارقاء بطبع العفوية والفوضى .

كان النضال بين الملكية العقارية الكبيرة والملكية العقارية الصغيرة احد التناقضات العميقه في نظام الرق . فالفلاحون ، الذين كان وضعهم يزداد سوءاً ، باستمرار ، كانوا يطالبون في برنامجهم بتحديد الملكية العقارية الكبرى وتقسيم الارضي . وهذا كان هدف الاصلاح الزراعي الذي دافع عنه الشقيقان غراكوس^(١) (في القرن الثاني قبل عصرنا) .

وفي عهد تفكك الامبراطورية الرومانية ، حين كانت الاكثرية العظمى من اهل المدن والارياف ، العبيد والاحرار ، لا يهتدون الى اي مخرج من ذلك الوضع ، مرت عقلية روما مالكة العبيد بأزمة عميقه .

وقد ادت التناقضات الطبقية في الامبراطورية المحترضة الى نشوء عقلية دينية جديدة . هي المسيحية التي كانت تعبر آنذاك عما يكنه العبيد وتكتنه الجماهير المصابة بالخراب من الفلاحين والحرفيين وفاقدى وضعهم الاجتماعي من احتجاج على الرق والاضطهاد . وكانت المسيحية متجاوحة ايضاً مع الحالة النفسية السائدۃ آنذاك بين اقسام واسعة من الطبقات المسيطرة التي ادركت حقيقة وضعها اليائس . ولذا كانت المسيحية في عهد سقوط الامبراطورية الرومانية ، مع توجيهها الانذارات القاسية الى الاغنياء والاقوياء ، تحت على الاستكانة والخنوع ، وتدعى الى البحث عن الخلاص في الحياة الاجرى .

اما في القرون التي تلت تلك الحقبة ، فقد اصبحت المسيحية نهائياً ، ديانة الطبقات المسيطرة ، وغدت السلاح الروحي المدعو للدنس عن استثمار الجماهير الكادحة واضطهادها لمبرر الاستثمار والاضطهاد .

(١) كان الشقيقان غراكوس (Ghraccus) قاضيين وخطيبين شهيرين في روما . قتل احدهما عام ١٣٣ (قبل عصرنا) واغتيل الثاني في عصيان عام ١٢١ (قبل عصرنا) . وقد حاولا ان يفعلا حداً لجشع الارستوقراتية الرومانية التي استولت على القسم الاعظم من الارضي التي ربحت بالحرب .

الفصل الرابع

أسلوب الإنتاج الإقطاعي

قيام الإقطاعية

وُجِدَ النَّظَامُ الْإِقْطَاعِيُّ فِي جَمِيعِ الْبَلَادِ تَقْرِيبًا ، وَلَكِنْ بِخَصائِصٍ مُخْتَلِفةٍ .

امتدَتِ الْإِقْطَاعِيَّةُ خَلَالَ حَقْبَةِ طَوِيلَةٍ . فَقَدْ بَقِيَ النَّظَامُ الْإِقْطَاعِيُّ فِي الصِّينِ نِيفًا وَالْفَيْ سَنَةً . وَبَقِيَ فِي أُورُوباِ الْفَرْبِيَّةِ عَدَةُ قَرْوَنٍ ، بَدَأَتْ مِنْذُ سُقُوطِ الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ الْرُّومَانِيَّةِ (القرن الخامس) حَتَّى الثُّورَاتِ الْبُورْجُوازِيَّةِ فِي انْكُلْتُرَا (القرن السابع عشر) . وَفِي فَرْنَسَا (القرن الثامن عشر) . وَاسْتَمْرَتِ الْإِقْطَاعِيَّةُ فِي رُوسِيَا مِنَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ إِلَى عَهْدِ الْاِصْلَاحِ الْزَّرَاعِيِّ عَامِ ١٨٦١ وَفِي بَلَادِ مَا وَرَاءِ الْقَوْقَازِ ، مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ إِلَى حَوْالَيِ ١٨٧٠ ، وَعِنْدِ شَعُوبِ آسِيَا الْوَسْطَى ، مِنَ الْقَرْنَيْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ حَتَّى اِنْتِصَارِ الثُّورَةِ الْبُرْوَلِيتَارِيَّةِ فِي رُوسِيَا .

وَفِي أُورُوباِ الْفَرْبِيَّةِ ، قَامَتِ الْإِقْطَاعِيَّةُ عَلَى انْقَاضِ مجَمِعِ الرَّقِ الرُّومَانِيِّ مِنْ جَهَةِ ، وَعَلَى انْقَاضِ نَظَامِ الْعَشِيرَةِ عَنْدِ الْقَبَائِلِ الْغَازِيَّةِ مِنْ جَهَةِ أُخْرَى ، وَهَكُذا كَانَتْ نَتْيَاجَةُ تَفَاعُلِ هَاتِينِ الْحَرْكَتَيْنِ .

وَجَدَتِ عَنَّاصِرُ النَّظَامِ الْإِقْطَاعِيِّ فِي قَلْبِ مجَمِعِ الرَّقِ ، وَذَلِكَ تَحْتَ شَكْلِ الْمَزَارِعَةِ ، كَمَا قَلَّنَا سَابِقًا . فَقَدْ كَانَ الْمَزَارِعُونَ مُلْزَمِينَ بِزَرْعِ أَرْضِ سَيِّدِهِمُ الْمَالِكِ الْعَقَارِيِّ الْكَبِيرِ ، وَبِدَفْعِ مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ لَهُ ،

وبتسلیمه جزءا هاما من المحصل . وكانوا ، فوق ذلك ، مجبرين على تأدية بعض اتاوات اخرى . ومع ذلك، فقد كان للمزارعين مصلحة في عملهم اكثر من العبيد ، لأن المزارعين كانوا يملكون استثماراً لهم . وهكذا تكونت علاقات انتاج جديدة بلغت تطورها الكامل في العهد الاقطاعي .

وقد حطمت الامبراطورية الرومانية على يد القبائل الجرمانية والفالية والسلافية التي كانت تقطن مختلف انحاء اوروبا . وقضى على سلطة مالكي العبيد ، وزال الرق . وتفككت الاقطاعات الواسعة (١) والورشات الحرفية الكبرى القائمة على عمل الرقيق وأصبح السكان ، بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، يتآلفون من كبار ملاكى الاراضي (مالكى العبيد القدماء الذين تبنوا نظام المزارعة) ومن العبيد المعتقين ومن المزارعين وال فلاحين الصغار والحرفيين .

كانت القبائل الغازية ، عندما اخضعت روما ، لا تزال في مرحلة المشاعية البدائية الآخذة في التفكك . وكانت **المشايعية الريفية** المسماة عند الجرمانيين « ماركا » (مقاطعة) ، تلعب دورا هاما في الحياة الاجتماعية لهذه القبائل . كانت الارض ملكا مشاعا ، باستثناء الاملاك الواسعة التي كانت تابعة لارستقراطية العشيرة . وبقيت الغابات والاراضي البور والمراعي والغدران ملكا مشتركة للاستعمال الجماعي . وكلما مضت بضع سنوات ، كان يعاد تقسيم الحقول والمروج بين اعضاء المشاعية . ولكن ، شيئا فشيئا ، انتقلت الارض الملخصة لامكنة السكن ، ومن بعدها جميع الاراضي الصالحة للزراعة الى ايدي العائلات التي اخذت تتمتع بها بالوراثة . كان توزيع الاراضي وبحث شؤون المشاعية ، وتسويه الخلافات التي تنشب بين اعضاء من اختصاص مجلس المشاعية والشيوخ والقضاة الذين تنتخبهم المشاعية . وكان على رئيس القبائل الغازية زعماء عسكريون يملكون مساحات واسعة من الارض ، ومثلهم اتباعهم .

استولت القبائل التي اخضعت الامبراطورية الرومانية على

القسم الاعظم من الاملاك العامة وعلى قسم من الاراضي العائدة لكتاب الملوك العقاريين . وبقيت الغابات والمروج والمراعي تحت تصرف العموم ، بينما قسمت الارض الزراعية بين الاستثمارات . وبعد ذلك ، اصبحت الارض المقسمة على هذا النحو ملكا خاصا لل فلاحين . وهكذا تكونت فئة كثيرة العدد من صفارات الفلاحين المستقلين .

على ان الفلاحين لم يستطعوا ان يحتفظوا باستقلالهم وقتا طويلا . فقد كان من المتحتم بالضرورة ان يشتد تفاوت الثروات بين اعضاء المشاعية الريفية ، من جراء وجود الملكية الخاصة للارض ولسائر وسائل الانتاج . وقد وجدت بين الفلاحين اسر فقيرة واسر ميسورة . ومع ازدياد التفاوت في الثروات ، كانت تقوى في المشاعية شوكة الاعضاء الذين تزداد ثروتهم . وكانت الاراضي تسير الى التمركز في ايدي الاسر الغنية وارستقراطية العشيرة والزعماء العسكريين . بينما كان الفلاحون يفقدون حريةتهم الشخصية، شيئا فشيئا ، لحساب كتاب ملكي الاراضي .

وعجل فتح الامبراطورية الرومانية في انحلال نظام العشيرة عند القبائل الغازية . وكان لزاما على كتاب الملوك العقاريين ان يدعموا سلطان الدولة لكي يحفظوا ويوطدوا سلطتهم على الفلاحين التابعين لهم . وقد استند الزعماء العسكريون الى ارستقراطية « العشيرة » والى المحاربين من اتباعهم . فحصروا السلطة في ايديهم . وانقلبوا الى ملوك واقيال .

لقد نشأ على انقاض الامبراطورية الرومانية عدد من الدول الجديدة التي كان يرئسها ملوك . وكان هؤلاء الملوك يمنحون الاراضي التي استولوا عليها هبة سخية الى ذوي قرباهم لينعموا بها مدى الحياة في البداية . ثم منحوهن الحق في توارثها . ولقاء تمعهم بهذه الاراضي ، كان عليهم ان يؤدوا الخدمة العسكرية . كذلك نالت الكنيسة ، التي هي دعامة هامة للسلطة الملكية ، كثيرا من الاراضي . كان الفلاحون يقومون بزراعة الارض . وقد ترتب عليهم ، بعد الان ، بعض التزامات لحساب اسيادهم الجدد . وانتقلت املاك عقارية

شاسعة الى ايدي المحاربين ، وخدمات الملك ، وكبار رجال الدين والاديرة . وكانت الاراضي التي تمنع على هذه الصورة تدعى اقطاعات (١) ومن هنا اشتقت اسم **الاقطاعية** الذي اطلق على النظام الاجتماعي الجديد .

طيلة عدة قرون (من القرنين الخامس والسادس الى القرنين التاسع والعشر) استمر في اوروبا تحويل اراضي الفلاحين تدريجا الى ملكية اقطاعية وفرض العبودية على جماهير الفلاحين وachsenاعهم للأقطاعية (٢) . وكانت الخدمة العسكرية التي لا تنتهي ، وأعمال النهب والضرائب تنزل الخراب بجماهير الفلاحين الاحرار . فأصبح الفلاح ، بعد اضطراره الى طلب المعونة من الملاك الكبير ، تابعا له . وفي الكثير غالب كان الفلاح مكرها على وضع نفسه تحت « حماية » السيد القطاعي ، اذ لم يكن في طوق انسان منفرد ، محروم من وسائل الدفاع ، ان يحافظ على بقائه وسط الحروب المستمرة وغزوات السلب . فكانت ملكية ارضه الصغيرة تنتقل الى القطاعي ، ويصبح الفلاح غير قادر على زرعها الا لقاء فرائض مختلفة يؤديها للسيد . وفي بعض الاحيان ، كان ممثلا الملك وموظفوه يستولون بالاحتياط والعنف على اراضي الفلاحين الاحرار ويرغمونهم على الاعتراف بسلطائهم .

تحقق نشر القطاعية بطرق مختلفة في مختلف البلدان ، ولكن ذلك ادى في كل مكان الى نتائج واحدة : فالfarmers كانوا في السابق احرارا اصبحوا تابعين تبعية شخصية للاقطاعيين الذين استولوا على اراضيهم . وكانت هذه التبعية على درجات مختلفة من القسوة . وزالت ، على مر الزمن ، الفروق التي وجدت ، في البدء ، بين العبيد القدماء والمزارعين وال农奴 الاحرار ، فذابوا جميعا في جمهور **الفلاحين الاقنان** . وتكونت شيئا فشيئا حالة يصفها

(١) fiefs بالفرنسية هي من الكلمة اللاتينية *feodum* التي اشتقت منها اسم *féodalité* ، اي القطاعية .

(٢) *féodalisation*

المثل السائر في القرون الوسطى، وهو : «لا ارض بدون سيد». وكان الملوك هم المالكين الاعلين للارض .

كانت الاقطاعية مرحلة ضرورية في تاريخ المجتمع . فقد استنفد الرق جميع ممكنته . واصبح حدوث تطور جديد في القوى المنتجة غير ممكن . بعد الان ، الا بفضل عمل جمهور الفلاحين التابعين الذين يملكون استثماراتهم الخاصة ، ويملكون ادوات الانتاج ، ولهם بعض المصلحة في العمل .

والتاريخ ، مع ذلك ، يشهد انه ليس من المتحتم قطعا ان يمر كل شعب ، على التوالى بجميع مراحل التطور الاجتماعى . فهناك كثير من الشعوب في وضع يسمح لها بأن تتجنب هذا او ذاك من ادوار التطور ، وان تنتقل دفعة واحدة الى دور أعلى. لقد ظهر الرق البطريركي في روسيا في زمن تفكك المشاعية. ولكن التطور الاجتماعي في هذه البلاد ، اتجه ، على الاكثر ، لا في طريق الرق بل في طريق الاقطاعية . فالقبائل السلافية التي كان النظام العشائري ما يزال يسودها ، بدأت منذ القرن الثالث من هذا العصر بمحاجمة الامبراطورية الرومانية القائمة على الرقيق، لتحرير المدن الواقعة على شاطئ البحر الاسود الشمالي . وقد أدت دورا هاما في سقوط نظام الرق . لقد تم الانتقال في روسيا من المشاعية البدائية الى الاقطاعية ، حين كان الرق قد زال منذ زمن بعيد ، وحين كانت العلاقات الاقطاعية قد توطدت في بلدان اوروبا الغربية .

كانت المشاعية الريفية عند سلافيا الشرق تسمى « فرف » (١) او « مير » (٢) وبقيت المروج والغابات والغدران ملكا شائعا ، بينما أصبحت الارض الزراعية ملكا لأسر مختلفة . وكان على رأس المشاعية شيخ . وشيئا فشيئا ادى تطور الملكية الخاصة للارض الى انحلال المشاعية واستولى شيوخ القبيلة وامرأوها على الارض . اما الفلاحون (٣) الذين كانوا في البدء

اعضاء احرارا في المشاعية فقد وقعوا في تبعية كبار مالكي الاراضي ، او النبلاء .

وأصبحت الكنيسة اهم الملاكين الاقطاعيين في ذلك الزمن . فان عطايا الامراء ، والهبات ، والتركات الموصى بها قد وضعت في حوزة الكنيسة اراضي واسعة واملاكا غنية جدا ..

ولما تألفت الدولة الروسية المركزية (القرن الخامس عشر والسادس عشر) ، جرى القياصرة وكبار الامراء على « تولية » (4) اقاربهم الاراضي ، كما كان يقال آنذاك ، وبكلمة اخرى ، جروا على منحهم الاراضي وال فلاحين ، شريطة ان يتبعدوا بأن يخدموهم في الحرب . ومن هنا جاءت الكلمة *Pomestie* بالروسية ، وتعني الاقطاع ، وكلمة *Pomechtchik* وتعني السيد الاقطاعي .

في ذلك العهد ، لم يكن الفلاحون مرتبطين بعد نهائيا بالملك العقاري وبالارض . لقد كان يحق لهم تغيير سيدهم . وفي اواخر القرن السادس عشر ، اخذ كبار ملاكي الاراضي يزيدون في استثمارهم للفلاحين لانتاج المزيد من الحبوب قصد بيعها . ولذلك سببت الدولة الفلاحين في عام 1581 حقهم في تغيير السيد الذي يعملون في ارضه . فأصبح الفلاحون ، بعد الان ، مربوطين بأرض الملك ربطا تاما ، وبذلك تحولوا الى اقنان .

كان الاقتصاد الريفي ، ولا سيما زراعة الارض ، يؤديان دورا راجحا في العهد الاقطاعي . وقد ادخلت تحسينات على زراعة الحبوب خلال الاجيال . وتطورت زراعة الخضار ، والبستنة وصناعة الخمر والزيت .

خلال الدور الاول من عهد الاقطاعية سادت في الزراعة الطريقة القائمة على زرع قسم من الارض وترك الباقي بورا يستريح راحه تامة ، او طريقة حرق الارض في المناطق المشجرة . وكانوا يزرعون الارض بالنبات نفسه عدة سنوات متتابعة الى ان تستنزف طاقة التربة تماما . ثم يبداؤن بزراعة ارض اخرى . وقد استبدلت بهذا

النقط فيما بعد طريقة الدورة الثلاثية : وهي ان تقسم الارض الى ثلاثة مقاسم يزرع كل منها بالتناوب حبوبا شتوية وحبوبا ربيعية ثم يترك بورا . وقد انتشرت طريقة الدورة الثلاثية في اوربا الفرنسية وفي روسيا ابتداء من القرن الحادى عشر والثانى عشر وبقى استعمالها سائدا مئات من السنين حتى القرن التاسع عشر ، ولا يزال يعمل بها اليوم ايضا في بعض البلدان .

بقيت المعدات الزراعية في اوائل العهد الاقطاعي معدات تافهة هزيلة . فكانت ادوات العمل مقتصرة على المحراث ذي السكة الحديدية والمنجل الصغير والمنجل الكبير والمعول . ثم بدأ باستعمال المحراث الحديدي والمدخلة . وظلت الحبوب تطهشن باليد زمانا طويلا الى ان شاع استعمال طواحين الهواء والماء .

علاقات الانتاج في المجتمع الاقطاعي . استثمار السيد الاقطاعي للفلاح .

كان اساس علاقات الانتاج في المجتمع الاقطاعي ملكية السيد للارض وملكيته المحدودة للقن . فلم يكن القن عبدا رقيقا ، بل كانت له استثماراته الخاصة . ولم يبق في استطاعة السيد ان يقتله ، ولكنه كان يستطيع ان يبيعه . وقد تعايشت الملكية الاقطاعية مع ملكية الفلاح والحرفي الفردية لادوات الانتاج ولللاستثمار الخاصة بكل منهما . وكانت هذه الملكية الفردية قائمة على العمل الشخصي . كانت الملكية العقارية الاقطاعية الكبيرة اساس استثمار السيد الاقطاعي للفلاح . كان ملك الاقطاعي ، بمعنى الكلمة الحقيقي ، يمتد على قسم من أرضه . اما القسم الآخر فكان السيد يعطيه للفلاحين ليتمتعوا به بشروط تستبعدهم استعبادا . كان الاقطاعي « يعطي حصة » من الارض للفلاح ، وبذلك يضمن لنفسه اليد العاملة . فكان على الفلاح ، لقاء التمتع الوراثي بحصة من الارض ، ان يعمل لحساب الملاك ، فاما ان يزرع له ارضه بادواته الخاصة وعلى ماشيته ، واما ان يسلمه الفائض من انتاجه ، تقدا او عينا .

وكان هذا النظام الاقتصادي يفترض وجود رابطة من التبعية

الشخصية تربط الفلاح بمالك الارض ، كان يفترض وجود نوع من الاكراد غير الاقتصادي . يقول لينين :

« لو لم يكن الاقتصادي ، سيدا على شخص الفلاح بشكل صريح ، لما استطاع ان يجبر انسانا يمتلك قطعة من الارض ويستثمرها بنفسه على ان يعمل له » (١) .

كان وقت عمل القن يقسم الى قسمين : الوقت الضروري والوقت الاضافي . وكان الفلاح خلال الوقت الضروري يوجد النتاج الضروري للقيام بأوده وأود عائلته . اما في الوقت الاضافي فكان يوجد النتاج الاضافي ، النتاج الفائض او الزائد الذي كان الاقتصادي يستولي عليه . وكانت ثمرة العمل الزائد الذي يقوم به الفلاح في ارض السيد الاقتصادي ، او النتاج الفائض الذي ينتجه الفلاح في أرضه الخاصة ويستولي عليه الاقتصادي ، يُولف **الريع العقاري الاقتصادي** .

ولم يكن الريع الاقتصادي يقتصر ، في أغلب الاحيان ، على التهام نتاج الفلاح الاضافي وحسب ، بل كان يلتهم ايضا جزءا من نتاجه الضروري . وكان هذا الريع قائما على الملكية الاقتصادية للارض ، وكانت سيطرة الملاك الاقتصادي المباشرة على الفلاحين الداخلين في تبعيته مرتبطة بهذه الملكية .

ووجدت في عهد الاقتصادية ثلاثة اشكال من الريع العقاري : الريع - العمل ، الريع العيني ، والريع النقدي . وهذه الاشكال جميعا هي مظهر سافر لاستثمار الملاكين فلاحيهم .

ساد الريع - العمل او السخرة في الادوار الاولى من عهد الاقتصادية . فكان الفلاح يستغل جزءا من週間 - ثلاثة ايام او اكثر - بادواته الانتاجية (المحراث ، وبهائم النقل) في املاك السيد ، ويعمل بقية週間 في استثماراته .

وعلى هذه الصورة ، كان عمل الفلاح الضروري وعمله

(١) - لينين : تطور الرأسمالية في روسيا ، الجزء الثالث من المؤلفات الكاملة ، ص ١٥٩ بالروسية .

الإضافي محددين ، بوضوح ، زماناً ومكاناً .
كانت الأعمال المطلوبة تأديتها خلال السخرة كثيرة ومتعددة :
فقد كان الفلاح يحرث الأرض ، ويبدراها ، ويجمع الغلال ، ويسرعى
المواشي ، ويقوم بأعمال النجارة ، ويقطع الحطب ، وينقل على
حصانه الحاسلات الزراعية ومواد البناء .

ولم يكن للقن المجبر على السخرة أية مصلحة في إنماء مردود
عمله في غير استثمارته . أما في أرض الاقطاعي فكان الأمر على
خلاف ذلك . ولذا ، كان لدى السيد الاقطاعي مراقبون وظيفتهم
اجبار الفلاحين على العمل .

وفيما بعد ، حل **الريع العيني** او **الفرضة العينية** محل
الريع - العمل . فكان الفلاح ملزماً بأن يقدم ، للقطاعي ، بصورة
منتظمة ، كمية من القمح وعدداً من الماشية والطيور الداجنة ،
ومنتجات زراعية أخرى . وكثيراً ما كانت هذه الفرضة تضاف
إلى بقایا من السخرة أي إلى أعمال يقوم بها الفلاح في
املاك السيد الاقطاعي .

أتاح الريع العيني للفلاح أن يتصرف بعمله الضروري وبعمله
الإضافي كيما شاء . ولم يبق في الامكان تمييز العمل الضروري من
العمل الإضافي بشكل محسوس كما كان الأمر بالنسبة إلى الريع - العمل .
وحصل الفلاح ، على استقلال نسبي ، فكان ذلك مشجعاً له ،
إلى حد ما ، على إنماء انتاجية عمله .

وفي الأدوار التالية لعهد الاقطاعية ، عندما انتشرت المبادلة
على نطاق واسع ، ظهر **الريع النقدي** ، بشكل فرضة نقدية .
ويتميز الريع النقدي المرحلة التي أخذت فيها الاقطاعية بالتفكك
وظهرت العلاقات الرأسمالية إلى الوجود .

لقد وجدت أشكال الريع الاقطاعي المختلفة جنباً إلى جنب
في أغلب الأحيان . ويقول ماركس :

« في جميع الأشكال ، التي درست ، افترضنا أن من يدفع
الريع كان يملك الأرض ويعمل فيها فعلاً ، وأن عمله الإضافي ، غير
الموضع عنه ، كان يعود مباشرةً للملك العقاري . أما في الريع النقدي

الذى جاء بديلا عن الريع العيني ، فلم يكن ذلك ممكنا فقط بل هو الواقع ! » (١) .

كان الاسيدات الاقطاعيون يخبون من الفلاحين طائفة من الرسوم ليزيدوا مداخيلهم . وكانوا في الغالب يحتكرون الطواحين وأكواز الحداده وبعض المؤسسات الاخرى التي كان الفلاح مضطرا للجوء اليها لقاء مبالغ باهظة يدفعها عينا او نقدا . وعلاوة على الفريضة العينية او النقدية التي كان الفلاح يدفعها للسيد الاقطاعي ، كان عليه ايضا ان يؤدى للدولة جملة من الضرائب ، وان يدفع رسوما محلية ، وكان عليه ، في بعض البلدان ، ان يدفع العشر ، اي ان يعطي الكنيسة عشر محصوله .

كان عمل الاقنان اذن هو الاساس في قيام المجتمع الاقطاعي . ولم يكن الفلاحون ينتجون المحاصيل الزراعية فحسب ، بل كانوا يعملون ايضا في املاك الاقطاعيين بصفة حرفيين ، كانوا يشيدون القصور والاديره ويشقون الطرق ، وهم الذين بنوا المدن .

كان الاقتصاد الاقطاعي في جوهره ، وخصوصا في البدء ، اقتصادا طبيعيا . فكانت الاقطاعة المؤلفة من مقر الاقطاعي ومن القرى التي يملكونها ، تعيش ضمن اقتصاد مغلق ، ولا تلجم الى المبادرات الا نادرا . وفي البداية كانت حاجات الاقطاعي واسرتنه وحوله العديدين تسد من المنتجات التي ترد من املاكه ومن الفرائض التي يؤدىها الفلاحون . وكانت الاقطاعات التي لها بعض الاهمية تحوي عددا كافيا من الحرفيين ، هم في اكثريتهم اقنان ملحقون بمقر السيد الاقطاعي . كان هؤلاء الحرفيون يحيطون الملابس والاحذية ، ويسنون و يصلحون الاسلحه وعتاد الصيد والادوات الزراعية ، ويشيدون الابنية .

كذلك كانت استثماره الفلاح اقتصادا طبيعيا . فلم يكن الفلاحون يزاولون الاعمال الزراعية فقط ، بل كانوا يقومون ايضا

(١) - ماركس : رأس المال . الجزء الرابع عشر ، ص ٨٩ ، طبعة الفرد كوست

بأعمال حرفية ، ولا سيما معالجة المواد الاولية التي يحصلون عليها من استثماراتهم : كانوا يغزلون وينسجون ويقومون بصنع الاحدية ، وصنع الادوات اللازمة لاستثماراتهم .

تميزت القطاعية زمنا طويلا بالجمع بين الزراعة : التي كانت الفرع الرئيسي للنشاط ، وبين الصناعة المترتبة التي لم تكن تؤدي سوى دور ثانوي . اما بعض المنتجات المستوردة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، كالملح وبعض السلع المصنوعة من الحديد ، فكان هناك بائعون جواليون يقدمونها للمستهلكين في اول الامر . ومع تطور المدن والانتاج الحرفى ، فيما بعد ، حرق تقسيم العمل وتتطور المبادرات بين المدينة والريف تقدما هاما .

ان استثمار الاسياد القطاعيين لل فلاحين التابعين هو السمة الرئيسية التي تتصرف بها القطاعية عند كل الشعوب . الا ان النظام القطاعي تميز في بعض البلدان بخصائص معينة . ففي الشرق ، اندمجت العلاقات القطاعية زمنا طويلا بالرق ، كما كانت الحال في الصين والهند واليابان وبعض البلدان الاخرى . وقد أدت الملكية القطاعية ، التي كانت للدولة ، دورا هاما في ذلك . ففي زمن الخلافة في بغداد ، ايام الحكم العربي (خصوصا في القرن الثامن والتاسع من هذا العصر) ، كان قسم كبير من اعضاء المشاعيات الريفية يعيشون على اراضي الخليفة ويدفعون الريع القطاعي للدولة مباشرة . كذلك تميزت القطاعية في الشرق ايضا ببقايا من العلاقات البطيركية التي كان القطاعيون يستغلونها لتشديد استثمارهم لل فلاحين .

وكان الفلاحون في الشرق ، حيث تؤدي الزراعة المروية دورا فاصلا . يجدون انفسهم رهن رحمة القطاعيين ، لأن الارض لم تكن وحدها ملك الدولة القطاعية او الاسياد القطاعيين بل المياه ومنتشرات الري ايضا .

كانت الارض عند الشعوب الرحيل تستخدم مراعي للماشية . وكان اتساع الاراضي التي يمتلكها القطاعيون متوقفا على اهمية قطعانهم . فكبار ملوك الماشية من القطاعيين كانوا ايضا من

كبار ملاكي الملاوي . وكانوا يستعبدون الفلاحين ويستثمرونهم . ان **القانون الاقتصادي الاقطاعي** قوامه انتاج نتاج زائد للقطاعيين ، بشكل ريع عقاري اقطاعي ، عن طريق استثمار الفلاحين التابعين .

مدينة القرون الوسطى . المراتب . جمعيات التجار .

ظهرت المدن منذ عهد الرق : ان روما وفلورنسا والبندقية وجنو في ايطاليا ، والقسطنطينية والاسكندرية في الشرق الادنى ، وباريس وليون ومرسيليا في فرنسا ، ولندن في انكلترا . وسمرتاند في آسيا الوسطى ، وغيرها من المدن الكثيرة ، هي ميراث خلفه عهد الرق للقرون الوسطى . لقد انهار النظام القائم على الرق ولكن المدن بقيت ، وتجزأت ورشات العبيد الكبيرة ، ولكن الحرف استمرت قائمة .

لم تتطور المدن والحرف في اوائل القرون الوسطى الا تطورا ضئيلا . صحيح ان الحرفين في المدن كانوا ينتجون سلعا للبيع ، ولكن القسم الاكبر من سلع الاستهلاك التي يحتاجون إليها كانوا يحصلون عليها من عملهم الشخصي . فقد كان كثيرون منهم يملكون قطعة من الارض ، او بستان او ماشية . وكان النساء يغزلن الكتان والصوف للملابس . وذلك يدل على الصفة المحدودة التي كانت تميز الاسواق والمبادلات آنذاك .

لم تكن معالجة المواد الاولية الزراعية في الريف بادئ الامر سوى نشاط ثانوي مساعد لدى الزراع . ثم بدأ ينفصل عن جمهور الفلاحين بعض الحرفين الذين كانوا يزودون قراهم بانتاجهم . ونمط انتاجية عملهم ، وأصبح في وسعهم ان يصنعوا من السلع اكثر مما كان ضروريا للسيد الاقطاعي او لفلاحي قرية واحدة . ثم شرع الحرفيون يتجمعون حول القصور المحسنة والاديرة وفي القصبات الكبرى ومراکز تجارية اخرى . وهكذا اخذت تظهر الى الوجود ، شيئا فشيئا ، مدن جديدة كانت تشاد في

أغلب الاحيان قرب مجاري المياه (مثال ذلك في روسيا قيام مدينة كييف ، بسكوف ، نوفغورود ، فلاديمير) .

ومع الزمن ، اصبحت الحرف اكثر درا للربح ، واصبح الحرفيون اكثر مهارة واعتداد الاسياد الاقطاعيون ان يشتروا مصنوعات حرفية من سكان المدن لأن مصنوعات اقنانهم لم تبق ترضيهم . وانفصلت الحرفة ، خلال تطورها ، انفصلا نهائيا عن الزراعة .

وكان المدن القائمة في اراضي الاقطاعيين ، العوام منهم والاكليريكيين خاضعة لشرائعهم . وكان أهل المدن ملزمين ببعض الالتزامات نحو السيد الاقطاعي ، فكانوا يؤدون له اتاوات عينية او نقدية ، كما كانوا خاضعين لسلطته الادارية وتابعين لمحاكمه . لم يلبث سكان المدن حتى شهروا النضال للتحرر من هذه التبعية الاقطاعية . وتمكنت المدن ، اما عنوة ، واما بدفع فدية معينة ، من الحصول على حق ادارة نفسها بنفسها ، وتأسيس محاكمها ، وعلى حق سك العملة ، وجباية الضرائب .

كان سكان المدن مؤلفين خصوصا من حرفيين وتجار . وكان كثير من المدن يؤوي الاقنان الهاربين . كانت المدينة تمثل الانتاج البضاعي بخلاف الريف الذي كان يسوده الاقتصاد الطبيعي . وقد اضطر الحرفيون الى التجمع في اصناف (١) لتفادي المزاحمة المتزايدة من جانب الاقنان الهاربين الذين كانوا يتذفرون على المدن ، وللنضال ضد استثمار الاسياد الاقطاعيين ومظلتهم . وقد وجد نظام الاصناف ، في عهد الاقطاعية ، في جميع البلدان تقريبا .

ظهرت الاصناف في بيزنطة وايطاليا في القرنين التاسع والعشر ، ثم ظهرت بعد ذلك في كل اوروبا الغربية وفي روسيا . وقبل ذلك ايضا ، نشأت الاصناف في الشرق (مصر ، الصين ، الخلافة العربية) . كانت الاصناف تضم الحرفيين المنيين الذين يزاولون حرفة واحدة او حرفا متراقبة . كان معلمو الحرفة فقط

(١) الاصناف ترجمة لكلمة Corporations ، وهي جماعات حرفية مقلقة خاصة بالقرون الوسطى .

اعضاء في الاصناف مستكملي الحقوق . وكان في امرة معلم الحرفه عدد قليل من الصناع (١) والمتربين . وكانت الاصناف تحرض حرصا شديدا على حماية حق اعضاها الحصري في مزاولة حرفيتهم ، وكانت تنظم الانتاج تنظيما دقيقا فتتحدد مدة يوم العمل ، وعدد الصناع والمتربين الذين يجوز لكل معلم حرفه تشغيلهم عنده وكانت تعين نوع المواد الاولية ونوع السلع الجاهزة ، كما كانت تحدد الاسعار . وكانت ، في الغالب ، تنظم شراء المواد الاولية بشكل مشترك . وكانت طرق العمل التي كرستها تقاليد طويلة ، الزامية على الجميع . وكان هناك نظام صارم يهدف الى منع اي معلم مهنة ، من الارتفاع الى اعلى من الاخرين . وبالاضافة الى ذلك ، كانت الاصناف منظمات تعاونية متبادلة .

كانت الاصناف هي الشكل الاقطاعي لتنظيم الحرفه . وقد أدت في البدء دورا نافعا باسهامها في توطيد الحرف وتطويرها في المدن . ولكنها ، مع ازدياد الانتاج البضاعي واتساع السوق ، اخذت تصبح ، اكثر فاكثرا ، كابحا لتقدير القوى المنتجة .

فإن تلك الترتيبات الصارمة التي فرضتها الاصناف على العمل كانت تشنل مبادرة الحرفيين وتعوق تطور التكنيك . وفي سبيل الحد من المزاحمة ، جعلت الاصناف مسألة الحصول على حق المعلمية رهنا بشروط كانت تزداد ضيقا باستمرار . وهذا بات من المتعذر عمليا على المتربين والصناع الذين ازداد عددهم زيادة كبيرة ان ينتقلوا الى مرتبة معلم مهنة . لقد كان محكوما عليهم ان يبقوا اجراء طول حياتهم . ولذا فقدت العلاقات بين معلم المهنة ومرؤوسيه صفتها التي كانت ما تزال نوعا ما على الحالة البطريركية . وكان معلمون المهنة يزدادون امعانا في استثمار مرؤوسيهم ، بتشغيلهم اربع عشرة او نصف عشرة ساعة في اليوم مقابل اجر بائس . وببدأ الصناع يتكتلون في جمعيات سرية او « شركات صناع » للدفاع عن مصالحهم . وكانت الاصناف وسلطات المدينة تغض النظر هذه الجمعيات اضطهادا شديدا .

(١) - الصناع ترجمة الكلمة compagnons بالفرنسية

كان التجار اغنى فئة بين سكان المدن وكانت التجارة تتطور ، سواء في المدن التي قامت في عهد الرق ، أم التي نشأت في عهد الاقطاعية . وكانت جمعيات التجار في التجارة تقابل الاصناف في الحرف . وقد وجدت جمعيات التجار في كل مكان تقريبا في عهد الاقطاعية . فقد لوحظ وجودها في الشرق منذ القرن التاسع، وفي اوروبا الغربية منذ القرنين التاسع والعشر ، وفي روسيا منذ القرن الثاني عشر . وكانت تهدف خصوصا الى النضال ضد مزاحمة التجار الآخرين ، والى ضمان توحيد الاوزان والمكاييل ، وحماية حقوق التجار ضد مؤسسات الاسياد الاقطاعيين .

منذ القرنين التاسع والعشر قامت تجارة هامة بين الشرق واوروبا الغربية وكانت منطقة كييف الروسية تساهم فيها مساهمة نشيطة . وقد ساهمت العروبة الصليبية (من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر) في اتساع هذه التجارة ، بفتح اسواق الشرق الادنى امام تجار اوروبا الغربية . وتدفق ذهب الشرق وفضته على اوروبا . وظهر النقد الى الوجود في الامكنة التي لم يكن معروفا فيها بعد . واشتراك المدن الايطالية مباشرة في غزو الاسواق الشرفية ، وخصوصا مدینتا جنوی والبندقية اللتان كانت سفنهما تكفل نقل الصليبيين وتمويلهم .
بقيت مرافء البحر المتوسط زمنا طويلا اهم وسيط بين اوروبا الغربية والشرق . ولكن التجارة تطورت ايضا في مدن المانيا الشمالية والبلاد الواطنة ، تلك المدن الواقعة على الطرق التجارية من بحري الشمال والبلطيق . وفي القرن الرابع عشر تألف في هذه المدن اتحاد تجاري باسم « العصبة الهايسية » (1) ضم ، خلال القرنين التاليين نحو ثمانين مدينة من مختلف البلدان الاوروبية . وكانت العصبة تتجه مع انكلترا واسكتلندانيا وبولونيا وروسيا . وكانت المنتجات الصناعية من اوروبا الغربية ، كاجوانغ الفلاندر ، وانكلترا ، واقمشة المانيا ومصنوعاتها المعدنية ، وخمور فرنسا تبادل بالفراء والجلود وشحوم الخنزير والعسل والحنطة والخشب والصمغ ومنسوجات الكتان وسائر السلع العرفية من شمال شرق اوروبا . وكان التجار يجلبون من الشرق الافاويه (الغلغلن ، كيش القرنفل ، جوز

الطيب) والعطور ، والاصبغة ، والمنسوجات القطنية والحريرية ، والسجاد ، وكثيرا من المنتجات الأخرى .

كانت المدن الروسية : نوفغورود ، بسكوف ، وموسكو على صلة مستمرة بآسيا وأوروبا الغربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وكان لتجار نوفغورود علاقات تجارية منتظمة مع شعوب الشمال (شاطئ المحيط المتجمد وبلدان ما وراء الأورال) من جهة ، ومع اسكندنافيا والمانيا من جهة أخرى .

اثر تطور المدن وتقديم التجارة على الريف الاقتصادي تأثيرا هائلا . واخذ الاقتصاد الاقتصادي ينجر شيئا فشيئا الى التداول البضاعي . كان الاسياد الاقتصاديون في حاجة الى المال لتدارك الاشياء الكمالية والسلع المصنوعة في المدينة . ولذا فضلوا ابدال السخرة والفريشة العينية بفرضية نقدية . وبذلك اصبح الاستثمار الاقتصادي اثقل وطأة . وغدا التضاد ، الذي ظهر في عهد الرق ، بين المدينة والريف ، اقوى واشد من ذي قبل .

الطبقات والطوائف ((المراتب)) (١) في المجتمع الاقتصادي . سلسل المراتب الاقتصادية .

كان المجتمع الاقتصادي مؤلفا من طبقتين رئيسيتين : طبقة الاقتصاديين وطبقة الفلاحين . وكان هذا المجتمع ، كما وصفه لينين ، « يعرض لوحة عن تقسيم طبقي كانت فيه الاغلبية العظمى – جماهير الفلاحين – الاقنان – تابعة تبعية تامة لاقلية ضئيلة ، هي فئة مالكي الاراضي » (٢) .

لم تكن الطبقة الاقتصادية متجانسة ، فقد كان الاقتصاديون الصغار يدفعون جزية الى الكبار ويساعدونهم في الحرب . ولكنهم كانوا يستفيدون من حمايتهم في مقابل ذلك . كان الحماة يدعون اسياده والذين رهن الحماية اتباعا ، وكان الاسياد بدورهم اتباعا لاسياد

Castes (١)

(٢) لينين : في الدولة » ، من كتاب الدولة والثورة ، صفحة ١١٩ .

اقطاعيين اعظم جبروتا . وهكذا تكون تسلسل المراتب الاقطاعية . كان الملوك العقاريون الاقطاعيون على رأس الدولة ، بوصفهم الطبقة المسيطرة . وكانوا يُلْفون فئة اجتماعية خاصة هي فئة النبلاء . وكان النبلاء الذين يقفون في قمة السلم الاجتماعية ، يتمتعون بامتيازات سياسية واقتصادية واسعة . وكان رجال الدين انفسهم ، (النظاميون منهم وغير النظاميين) ، ملاكيين عقاريين كبارا . لقد كانوا يملكون مساحات واسعة من الارض التي يعيش عليها كثير من السكان الابتعاد والاقنان . وكان رجال الدين هؤلاء يُلْفون فئة اجتماعية مسيطرة ، مثل فئة النبلاء . كانت مراتب التسلسل الاقطاعي قائمة على القاعدة الواسعة ، التي تشكلها **جماهير الفلاحين** وكان الفلاحون ملزمون بالطاعة للسيد الاقطاعي ، وتابعين للسلطة العليا التي يتولاها الاقطاعي الاول : الملك . فقد كانوا فئة اجتماعية مجردة من كل حق سياسي . فكان من حق الاسياد الاقطاعيين ان يبيعوا اقنانهم ، وكانوا يستعملون هذا الحق استعملا واسعا ، كما كانوا ينزلون عقوبات جسدية بالفلاحين . وقد وصف لينين القناة فسماها : « استرقاق الانسان المرتبط بالأرض » . كان القن مستثمرا بشكل لا يقل وحشية تقريبا عن استثمار العبد الرقيق في العهد القديم . الا انه ، مع ذلك ، كان يستطيع ان يعمل في ارضه الخاصة ، وان يكون ، الى حد ما ، سيد نفسه .

ان التناقض الطبقي بين الاقطاعيين والفلاحين الاقنان يسود تاريخ المجتمع الاقطاعي . فقد استمر نضال الفلاحين المستثمرين ضد الاقطاعيين طوال عهد الاقطاعية ، واشتدت حدته ، بصورة خاصة ، في نهاية ذلك العهد ، عندما بلغ استثمار الاقنان غاية التفاقم .

اما في المدن المنعتقة من التبعية الاقطاعية فكانت السلطة في أيدي الاثرياء المدنيين : تجارا ، ومرابين ، وملakiي اراضي وعقارات مبنية . وكان حرفيو الاصناف ، الذين يتالف منهم معظم سكان المدن

في صراع ، أغلب الأحيان ، مع أرستو قراطي المدن للحصول على حق المساهمة معهم جنبا إلى جنب في إدارة المدينة . كذلك كان الحرفيون الصغار ، والصناع يناضلون ضد الاستثمار الذي كانوا يعانونه من جانب معلمي الحرف والتجار .

وكان قد بلغ التمايز بين سكان المدن، في أواخر العهد الاقطاعي مدى بعيدا . فمن جهة كان أثرياء التجار ومعلمون الحرف ، ومن جهة أخرى ، كان الصناع والمتدربون والناس القراء . كانت فئات السكان الدنيا تقاوم أرستو قراطي المدن والاقطاعيين المخالفين . وكان نضال هذه الفئات يلتقي بنضال الفلاحين الاقنان ضد الاستثمار الاقطاعي .

كان من المفروض أن تكون السلطة العليا بيد الملك . كانت في روسيا بيد كبار الأمراء ثم صارت إلى القياصرة . الا ان سلطة الملك خارج نطاق املاكهم كانت ، في أول العهد الاقطاعي ، أقل من ان تذكر ، بل كانت في الفالب سلطة اسمية فقط . وكانت كل أوروبا مقسمة إلى جمهرة من الدول الكبيرة والصغيرة . وكان كبار الاقطاعيين سادة مطلقين في أراضيهم . فهم الذين كانوا يملون القوانين ، ويضمنون تنفيذها ، ويقضون بين الناس . وكانوا يملكون جيوشا ويقومون بغزوات على جيرانهم . ولم يكونوا يتحرجون من القيام باموال السلب على الطرقات العامة . وكثيرون منهم كانوا يسكنون النقود . أما الاقطاعيون الذين كانوا أقل جسروتا ، فكانوا يتمتعون أيضا بحقوق واسعة جدا على رعاياتهم ، ويحاولون ، في كل شيء ، ان يطبقوا نهجهم على نهج كبار الاقطاعيين .

انتهت العلاقات الاقطاعية ، مع الزمن ، إلى مجموعة شديدة الإضطراب والتعقيد من الحقوق والواجبات . وباتت الخلافات والنزاعات مستمرة بين الاقطاعيين ، وأصبح من المؤلف أن ترسم بالقوة في حروب داخلية .

تطور القوى المنتجة في المجتمع الاقطاعي

بلغت القوى المنتجة في العهد الاقطاعي مستوى ارفع مما كانت عليه في عهد الرق .

فاصبح التكنيك الزراعي اكثر اتقاناً . وعم استعمال المحراث الحديدي وادوات اخرى من الحديد . وادخلت زراعات جديدة ، وحققت زراعة الكرمة وصناعة الخمور وزراعة الخضار نهوضاً مرموقاً . وتقدمت تربية المواشي ، ولا سيما تربية الخيل بسبب حاجات الاقطاعيين العسكرية ، وتطور صنع الزبدة ، واتسعت تربية الاغنام في بعض المناطق اتساعاً كبيراً . وحسنت المروج والمراعي ووسيع مساحاتها .

كذلك تطورت ادوات الحرفين وتحسن طرق معالجة المواد الاولية . واخذت الحرف القديمة تتجه نحو الاختصاص . فحرفة الحداده التي كانت تنتج في البدء جميع انواع الادوات المعدنية ، انفصلت عنها صناعة الاسلحة ، والمسامير ، والمدى ، والاقفال . كذلك تفرعت عن صناعة الجلود صناعة الاحذية ، وصناعة السروج . وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر انتشر دولاب الغزل في اوروبا . وفي عام ١٦٠٠ اخترع نول التميديد .

وأدى تحسين طرق صب الحديد ومعالجته دوراً حاسماً في اتقان ادوات العمل . فقد كان انتاج الحديد يجري في البدء بطرق بدائية تماماً . ثم بدئ في القرن الرابع عشر باستخدام الدولاب المائي لتحريك اكوار الحداده ، والمطارق الضخمة المعدة لتفتيت الفلزات . كما ان تحسين التهوية في الموقد جعل في الامكان الحصول على كتلة ذاتية ، هي الحديد المصوب ، بدلاً من الكتلة اللينة ، كما كان الامر سابقاً . ومع استعمال البارود لاغراض عسكرية ، ومع ظهور المدفعية (القرن الرابع عشر) ، أصبح من الضروري الحصول على كميات ضخمة من المعدن لصنع القذائف ، وقد جرت العادة ، منذ بدء القرن الخامس عشر ، ان تصب من الحديد . كذلك كان صنع الادوات الزراعية وغيرها من الادوات

يتطلب دائماً المزيد من المعدن . فظهرت الأفران العالية إلى الوجود في النصف الأول من القرن الخامس عشر . وساهم اختراع البوصلة في تقدم الملاحة . وكان لاختراع المطبعة وانتشارها أهمية كبرى .

ان الصين التي حققت فيها القوى المنتجة والحضارة نظوراً مرموقاً من القرن السادس الى القرن الحادي عشر ، قد سبقت اوروبا في كثير من المجالات . فالى الصينيين يرجع الفضل في اختراع البوصلة ، والبارود ، والورق ، والمطبعة بشكلها الاولى .

كان تطور القوى المنتجة في المجتمع ، يصطدم اكثر فأكثر بنطاق العلاقات الانتاجية الاقطاعية البالغ الضيق . وكان الفلاحون الرازحون بنير الاستثمار الاقطاعي عاجزين عن انتاج مزيد من المحاصيل الزراعية . فان مردود عمل الفلاح المستبعد كان في منتهى الانخفاض . وفي المدن ، كان ازدياد انتاجية العمل الحر في يصطدم بقوى اصناف ونظمها الخاصة . ولذا اتصف النظام الاقطاعي ببطء تقدم الانتاج وبالنمطية والجمود وشدة سلطان التقاليد .

كانت القوى المنتجة التي تطورت في المجتمع الاقطاعي تتطلب قيام علاقات انتاجية جديدة .

ولادة الانتاج الرأسمالي في قلب النظام الاقطاعي . دور الرأسمال البضاعي

شهد العهد الاقطاعي تطور الانتاج البضاعي بصورة تدريجية ، كما شهد اتساع العمل الحرفي في المدن . وكانت حركة التبادل تجذب منتجات الاقتصاد الفلاحي الى غمرتها اكثر فأكثر . ان انتاج الحرفيين الصغار وال فلاحين ، الذي يقوم على الملكية الخاصة والعمل الفردي ويخلق منتجات للتبادل ، يدعى : **الانتاج البضاعي البسيط** .

والنتاج المصنوع برسم المبادلة هو بضاعة ، كما سبق القول .

ان منتجي البضائع المختلفين يبذلون ، لاجل انتاج بضائع متماثلة، مقدارا متفاوتا من العمل يتوقف على الظروف المحيطة بكل من هؤلاء المنتجين . فالذين منهم يملكون ادوات عمل اكثرا اتقانا يصرفون عملا اقل من سواهم لانتاج البضاعة نفسها . كذلك يختلف الشغيلة من حيث القوة واللباقة والمهارة ، الخ ... ولكن السوق قلما تبالي الظروف او الادوات التي انتجت فيها هذه البضاعة او تلك . ففي السوق يدفع المبلغ ذاته ثمنا للبضائع المتماثلة ، مهما تكن ظروف العمل الفردية التي تم فيها انتاج هذه البضائع .

ولذا فان منتجي البضائع الذين تكون نفقات العمل الفردية عندهم ارفع من الوسط ، بسبب وجودهم في شروط اسوأ من سواهم ، لا يفطرون ، عند بيع بضائعهم ، الا جزءا من هذه النفقات ، فينتهيون الى الانفاس . اما اولئك الذين تكون نفقات العمل عندهم ادنى من الوسط ، بفضل ظروف احسن ، فيكونون في وضع ممتاز عند بيع بضائعهم ، ويثنون . هذا هو السبب لاشتداد المزاحمة . وهكذا يحدث تمایز بين صغار منتجي البضائع الصغار : فيزداد فقر الاغلبية باستمرار ، بينما تشي اقلية ضئيلة .

كانت التجزئة السياسية في النظام الاقتصادي عقبة كبيرة تعوق تطور الانتاج البصري . فكان القطاعيون يفرضون على البضائع الواردة من الخارج ما يساوون من الرسوم ، ويجبون بدلات مرور ، فيقيمون بذلك عقبات خطيرة في وجه التجارة . وكانت حاجات التجارة ، وحاجات التطور الاقتصادي في المجتمع ، بوجه اعم ، تتطلب ازالة التجزئة الاقتصادية .

وقد ادى تقدم الانتاج الحرفى والزراعي وتقدم التقسيم الاجتماعى للعمل بين المدينة والريف الى قيام علاقات اقتصادية اشد نشاطا بين مختلف المناطق في البلد الواحد ، والى تأسيس سوق وطنية . واوجدت السوق الوطنية ، بدورها ، الشروط الاقتصادية لمركزية السلطة السياسية . وكان من مصلحة البورجوازية الناشئة في المدن تحطيم الحواجز الاقتصادية ، ولهذا كانت تؤيد قيام دولة مركزية .

وقد استند الملوك الى اوسع فئة من طبقة النبلاء الصغار ، استندوا الى «اتباع اتباعهم» ، والى المدن التي كانت تنهض وتصعد باستمرار ، فسددوا ضربات حاسمة الى الارستو قراطية الاقطاعية ووطدوا سلطانهم ، واصبحوا سادة الدولة لا بالاسم فقط كما كانت الحال سابقا ، بل بالفعل ايضا . وتألفت دول وطنية كبرى في شكل ملكيات مطلقة . وقد ساهم زوال التجوزة الاقطاعية وقيام سلطة سياسية مركبة في ظهور العلاقات الرأسمالية وتطورها . كما ان تكوين سوق عالمية ادى ايضا دورا كبيرا في قيام النظام الرأسمالي .

استولى الترك ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، على القسطنطينية وعلى كل القسم الشرقي من البحر المتوسط . فانقطعت الطريق التجارية الكبرى التي كانت تصل اوروبا الغربية بالشرق . واكتشف خريستوف كولومبوس اميركا في عام ١٤٩٢ ، بينما كان يبحث عن طريق الهند البحري الذي وجده فاسكودي غاما عام ١٤٩٨ ، بعدهما دار حول افريقيا .

وعلى اثر هذه الاكتشافات ، فقد البحر المتوسط تفوقه التجاري لمصلحة المحيط الاطلسي ، واصبح المكان الاول في التجارة للبلاد الواطئة ولانكلترا وفرنسا . وكانت روسيا تؤدي ايضا دورا هاما في التجارة الاوروبية .

بنشوء التجارة العالمية والسوق العالمية ، لم يبق في وسع العمل الحرفي ان يلبي الطلب المتزايد على البضائع . وقد ادت هذه الحال الى التعجيز في الانتقال من الانتاج الحرفي الصغير الى الانتاج الرأسمالي الكبير القائم على استثمار العمال الاجراء .

وقد تم الانتقال من اسلوب الانتاج القطاعي الى اسلوب الانتاج الرأسمالي بطريقتين : من جهة ، ادى التمايز بين منتجي البضائع الصغار الى ظهور الملتزمين الرأسماليين ، ومن جهة اخرى ، وضع الرأسمايل التجارى ، الممثل بشخص التجار ، الانتاج رهن تبعيته مباشرة .

كان في وسع الاصناف أن تحد من المزاحمة والتمايز بين الحرفيين ، ما بقي الانتاج البصاعي ضعيف التطور . ولكن مع تقدم التبادل ، أخذت المزاحمة تزداد احتداما . كما اخذ معلومو

الحرف الذين أصبحوا يشتغلون بسوق أوسع يحاولون التوصل إلى الغاء التضييقات التي وضعتها الأصناف أو يحتالون عليها ، بكل صراحة . فكانوا يطيلون يوم عمل الصناع والمتدربين ، ويزيدون عددهم ، ويطبقون أساليب عمل أوفر انتاجا . وكان أوفرهم ثروة يصبحون رأسماليين شيئاً فشيئاً . أما الفقراء منهم والصناع المتدربون فكانوا يصبحون عملاً أجراء .

ان الرأسمال التجاري ، بتفكيره الاقتصاد الطبيعي ، قد ساهم في قيام الانتاج الرأسمالي . لم يكن الرأسمال التجاري ، أول الامر ، سوى وسيط في مبادلة بضائع صفار المنتجين – الحرفيين وال فلاحين – وكذلك في تحقيق القطاعيين لجزء من الانتاج الفائض الذي يستملكونه . ثم أخذ التاجر يشتري ، بشكل منظم ، من صفار المنتجين البضائع التي يصنعونها لكي يبيعها في سوق أوسع . وبهذه الطريقة كان يصبح محتكراً^(١) . ومع تطور المزاحمة وظهور المحتكر تبدل وضع جمهور الحرفيين تبلاً محسوساً . وأخذ معلمو الحرف ، الذين يصابون بالفقر ، يلتمسون العون من التاجر المحتكر الذي كان يسلفهم مالاً ومواد أولية ولوازم ، شرط أن يبيعوه الانتاج المنجز بسعر شديد الانخفاض ، متفق عليه مقدماً . وعلى هذه الصورة ، كان صفار المنتجين يقعون في تبعية الرأسمال التجاري الاقتصادية .

وشيئاً فشيئاً، أصبح عدد كبير من معلمي الحرف الذين افتقروا، رهن تبعية محتكر ثري واحد . وكان هذا يوزع عليهم المواد الأولية كالخيوط التي يصنعون منها المنسوجات ، مثلاً ، مقابل مبلغ ما ، وأصبح بذلك موزعاً .

وبسبب افلانس الحوفي ، بات لزاماً أن يزوده المحتكر لا بالمادة الأولية فحسب بل بادوات العمل ايضاً . وبهذه الطريقة فقد الحوفي آخر مظاهر من الاستقلال، وأصبح نهائياً عاملاً بالاجرة ، بينما تحول

(١) استعملت الكلمة « محتكر » هنا بمعناها الحوفي ، لا بمعنى السيء الذي تدل عليه في أيامنا – هيئة التعرير .

المحتكر الى رأسمالي صناعي .

اصبح حرفيو الامس الذين تجمعوا الان في ورشة الرأسمالي يقونون جميعا بعمل واحد . ولكن سرعان ما ظهر ان بعضهم يجيدون اقساما معينة من العمل، بينما يجيد غيرهم اقساما اخرى . وظهر انه من الاجدى ان يعهد الى كل منهم بالقسم الذي يجيده من العمل . وهكذا ادخل تقسيم العمل ، شيئا فشيئا ، في الورشات التي كانت تستخدم ايدي عاملة عديدة نوعا ما .

واطلق على المؤسسات الرأسمالية التي يقوم فيها العمال الاجراء بعمل يدوي على اساس تفسيم العمل اسم : **المشاغل** (١) . ظهرت المشاغل الاولى في القرنين الرابع والخامس عشر في فلورنسا وفي بعض الجمهوريات الايطالية في القرون الوسطى . ومن القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر ، ازداد كثيرا عدد المشاغل التي تنتج الجوخ ، والمنسوجات الكتانية والحريرية ، والساعات ، والاسلحة ، والزجاج ، في جميع بلدان اوروبا .

وظهرت المشاغل في روسيا في القرن السابع عشر . وانتطلقت انتطلاقا سريعا في اوائل القرن الثامن عشر في عهد بطرس الاول ، ولا سيما مشاغل الاسلحة ، والجوخ ، والحرير . وانشئت في الاورال مصانع للحديد والفولاذ ، ومناجم ، ومعامل للملح .

وخلال المشاغل اوروبا الغربية التي كانت قائمة على العمل بالاجرة ، كانت المؤسسات الروسية ، مع اعتمادها ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، شفيلة احرار يعملون بالاجرة ، تستخدم خصوصا فلاحين وعملا اقنانا . ومنذ اواخر القرن الثامن عشر ، انتشرت المشاغل القائمة على العمل الحر بالاجرة انتشارا واسعا . واشتد هذا السباق خلال العقود الاخيرة التي سبقت الغاء القنانة . كذلك كان تفكك العلاقات الاقطاعية مستمرا في الريف . وكان سلطان المال يزداد قوة ، كلما تطور الانتاج البضاعي . وعمد الاسياد الاقطاعيون الى تبديل الالتزامات العينية المفروضة على الفلاحين بالتزامات نقدية . واصبح الفلاحون مضطرين لبيع منتجات

(١) المشاغل : ترجمة الكلمة manufactures (مانيفكتوره) ، وتعني

تماما : العمل الذي يجري باليد - هيئة التعریب .

عملهم لكي يدفعوا للقطاعيين المال الذي يحصلون عليه . ومن هنا بات الفلاحون في حاجة دائمة للمال ، وكان المحتكرون والمربون ينتهزون هذا الوضع لاستعباد الفلاحين . واصبح الاستهاد القطاعي أشد وطأة ، ووضع الأقنان أشد تفاقما .

ادى تطور العلاقات النقدية الى التعجيل في بروز التمايز بين الفلاحين ، وبكلمة اخرى ، الى التعجيل في انقسامهم الى فئات اجتماعية مختلفة . وكانت الاكثريّة العظمى من الفلاحين غارقة في لحج من البؤس ، مرهقة بالعمل ، وسائلة الى الخراب . والى جانب ذلك ، بُرِزَ الى الوجود فلاحون اغنياء كانوا يستثمرون جيرانهم بقروض جائرة اذ يشترون منتجاتهم الزراعية ومواشيهم وادوات عملهم باثمان بخسة .

وهكذا ولد الانتاج الرأسمالي في قلب النظام القطاعي .

التراكم البدائي للرأسمال – انتزاع املاك الفلاحين بالعنف . تراكم ثروات

يفترض الانتاج الرأسمالي تحقيق شرطين رئيسيين : الاول ، وجود جمهور من الناس غير مالكين ، احرار باشخاصهم ، لكنهم مجردون ، مع ذلك ، من وسائل الانتاج والعيش ، ومضطرون ، بال الثاني ، لأن يؤجروا انفسهم للرأسماليين ويعملوا لحسابهم . والثاني تراكم ثروات نقدية لا غنى عنها لانشاء مؤسسات رأسمالية كبرى .

لقد رأينا ان الوسط المغذي للرأسمالية هو الانتاج البضاعي الصغير القائم على الملكية الخاصة حيث تؤدي المزاحمة الى اغفاء البعض ، والى خراب معقّم الاخرين . الا ان البطء في سير هذا التطور لم يكن يتلاءم مع حاجات السوق العالمية الجديدة التي خلقتها الاكتشافات الكبرى في نهاية القرن الخامس عشر . وقد عمد كبار المالكين العقاريين ، والبورجوازية وسلطة الدولة ، التي كانت في ايدي الطبقات المستمرة ، الى استخدام افعى طرق الاكراه للتعجيل في رفع اسلوب الانتاج الرأسمالي الى تسلمه عرشه .

فكان العنف ، حسب تعبير ماركس ، هو القابلة التي عجلت في

توليد اسلوب الانتاج الرأسمالي الجديد .

ان العلماء البورجوازيين يصورون ولادة الطبقة الرأسمالية وطبقة العمال بالوان شعرية . نهم يؤكدون ان قبضة من الرجال الكدودين المقتضدين قد جمعوا في ازمنة سحيقة ثروات من عملهم بينما كانت جموع من الكسالى والبطالين يبذرون كل ما يملكون ، ثم يصبحون من البروليتاريين .

ان هذه الاساطير التي تخيلها المدافعون عن الرأسمالية لا تمت الى الواقع بایة صلة . وفي الواقع ، كان تكوين جمهور من الناس غير المالكين – وهم البروليتاريون – وتراكم الثروات في ايدي عدد من الافراد ، قد كانت نتيجة لحرمان صغار المنتجين بالعنف والشدة من وسائل الانتاج . فان انفصال المنتجين عن وسائل انتاجهم ، (الارض وادوات الانتاج الخ) عملية رافقتها اغتصابات وفظائع لا عد لها . وقد أطلق على هذه العملية اسم **التراكم البدائي للرأسمال** لانها سبقت ظهور الانتاج الرأسمالي الكبير .

ان انكلترا هي اول بلد تطور فيه الانتاج الرأسمالي تطويرا كبيرا . ففي اواخر القرن الخامس عشر ، بدأت في هذا البلد العملية المؤلمة ، عملية تجريد الفلاحين من ملكيتهم بالعنف والشدة . وكان الدافع المباشر لهذه العملية تزايد الطلب على الصوف من قبل مشاغل الجوخ الكبرى التي ظهرت اولا في الفلاندر ثم في انكلترا نفسها . فشرع الاسياد الاقطاعيون يربون قطعاً كبيرة من الخراف ، وأصبحوا بحاجة الى المراعي لهذه الغاية . فاخذوا يطردون الفلاحين جماعات من مساكنهم ويستولون على الاراضي ويحولون الحقول المزروعة الى مراع . رغم ان الفلاحين كانوا يتمتعون بهذه الاراضي منذ القدم .

لقد كانت تنزع ملكية الفلاحين بطرق مختلفة ، ولكن الطريقة الرئيسية كان قوامها وضع اليد بلا حياء على الاراضي المشاعية . فكان الاسياد الاقطاعيون يحيطون بهذه الاراضي بالاسوار ويهدمون بيوت الفلاحين ويطردونهم منها . واذا حاول هؤلاء استرجاع الارض التي انتزعت منهم بشكل غير مشروع ، هبت القوة المسلحة

في الدولة ، على جناح السرعة ، إلى نجدة الاقطاعي . وقد صدرت سلسلة من القوانين في القرن الثامن عشر حول « المساحات المسورة » لثبت هذه الاغتصاب لاراضي الفلاحين . كانت جماهير الفلاحين الذين خربت بيوتهم وسلبت اراضيهم ، يملأون مدن انكلترا وقصباتها ويسيدون دروبها . وقد اضطروا الى الاستجداء بعدما حرموا وسائل العيش . فسنت السلطات ضد الفلاحين المجردين من املاكهم قوانين دامية فريدة في وحشيتها . وهكذا اعدم في انكلترا في عهد هنري الثامن (القرن السادس عشر) اثنان وسبعين الف شخص بتهمة « التشرد » . وفي القرن الثامن عشر ابدلت عقوبة الاعدام التي كانت مفروضة على « المترددين » وعلى الذين لا مأوى لهم ، بعقوبة الحبس في « بيوت للعمل » دعية بحق « بيوت الهول » . وكانت البورجوازية ترمي بذلك الى اخضاع السكان الريفيين لنظام العمل بالاجرة ، بعدما طردوا من ارضهم واضطروا الى التشرد .

كذلك ، في روسيا القيصرية التي سارت في طريق التطور الرأسمالي بعد سائر البلدان الاوروبية ، جرى فصل المنتج عن وسائل انتاجه بالطرق ذاتها التي استخدمت في الاقطار الاخرى . وفي عام ١٨٦١ ، اضطرت الحكومة القيصرية ، من جراء ضغط انتفاضات الفلاحين ، الى الفاء القناة .

كان هذا الاصلاح عملية سلب للفلاحين واسع النطاق . فقد استولى كبار المالكين على ثلثي الاراضي ، واحتفظوا لأنفسهم بقطع (١) في احسن الاراضي ووقد كما احتفظوا ، في بعض الاحيان ، بالمراعي وموارد المياه والطرق المؤدية الى الحقوق ، بعدما كان للفلاحين حق الانتفاع بها جميعا فيما سبق . واتخذ كبار المالكين من هذه القطع وسيلة لاخضاع الفلاحين كانوا يضطرون لاستئجار الاراضي باقسى الشروط . ان القانون الذي اقر حرية الفلاح الشخصية قد ابقى ، بصورة مؤقتة ، على السخرة والفرصة . فكان على الفلاح ، لقاء قطعة الارض البتراء التي نالها ، ان يؤدي للقطاعي هذه الالتزامات ، ما دام لم يسد كل ثمن افتتاح الارض

(١) دعية بالروسية « отрезки » (او تريزكي) .

بعد . وفـد حـسب حق اـفتـكـاك الـارـاضـي عـلـى اـسـاس اـسـعـار مـرـتفـعة جـدا ، بـلـفتـ نـحـو مـلـيـاري روـبـل ..
كتـبـ لـينـينـ وـاصـفـا الـاصـلاحـ الزـرـاعـيـ الذـي جـرـى فـي عـامـ ١٨٦١ ، قـالـ :

« هـذـا أـولـ عـنـف جـمـاهـيرـي ضـدـ الـفـلاـحـينـ لـحـسـابـ الرـأـسـمـالـيـةـ النـاشـئـةـ فـيـ الزـرـاعـةـ . لـقـدـ مـهـدـ مـلـاـكـوـ الـارـاضـيـ التـرـبةـ لـلـرـأـسـمـالـيـةـ » (١) .

كان لـتـجـريـدـ الـفـلاـحـينـ مـنـ اـمـلاـكـهـمـ نـتـيـجـةـ مـزـدـوـجـةـ . فـمـنـ جـهـةـ ، اـصـبـحـتـ الـارـاضـيـ مـلـاـكـ مـلـاـكـ خـاصـاـ لـعـدـدـ ضـئـيلـ نـسـبـياـ مـنـ كـبـارـ مـلـاـكـيـ الـارـاضـيـ ، وـتـحـوـلـتـ الـمـلـكـيـةـ الـاقـطـاعـيـةـ لـلـارـضـ ، أـيـ مـلـاـكـيـةـ فـئـةـ اـجـتـمـاعـيـةـ مـعـيـنـةـ ، إـلـىـ مـلـكـيـةـ بـورـجـواـزـيـةـ . وـمـنـ جـهـةـ أـخـرىـ ، اـفـادـتـ الصـنـاعـةـ مـنـ تـدـفـقـ الـعـمـالـ الـاحـرـارـ الـمـسـتـعـدـيـنـ لـتـأـجـيرـ اـنـفـسـهـمـ إـلـىـ الرـأـسـمـالـيـينـ .

لـكـيـ يـظـهـرـ اـنـتـاجـ الرـأـسـمـانـيـ لـمـ يـكـنـ يـحـتـاجـ إـلـىـ يـدـ عـامـلـةـ رـخـيـصـةـ وـحـسـبـ . بلـ كـانـ يـحـتـاجـ إـيـضاـ إـلـىـ تـراـكـمـ ثـرـوـاتـ كـبـرـىـ فـيـ إـيـديـ بـعـضـ الـافـرـادـ بـشـكـلـ مـبـالـغـ مـنـ الـمـالـ يـمـكـنـ تـحـوـيـلـهـاـ إـلـىـ وـسـائـلـ اـنـتـاجـ ، وـاستـخـدـامـهـاـ فـيـ اـسـتـئـجـارـ الـعـمـالـ .

لـقـدـ كـدـسـ التـجـارـ الـمـرـاـبـونـ فـيـ الـقـرـونـ الـوـسـطـيـ ثـرـوـاتـ ضـخـمةـ اـتـاحـتـ ، فـيـمـاـ بـعـدـ ، اـنـشـاءـ مـؤـسـسـاتـ رـأـسـمـالـيـةـ عـدـيـدةـ . كـمـاـ انـ فـتـحـ اـمـيـرـكـاـ ، الـذـيـ رـافـقـهـ نـهـبـ السـكـانـ الـاـصـلـيـينـ الـجـمـاهـيرـيـ ، وـابـادـتـهـمـ ، قـدـ جـلـبـ لـلـفـاتـحـينـ ثـرـوـاتـ لـاـ تـحـصـىـ نـمـتـ سـرـيـعاـ ، فـيـمـاـ بـعـدـ ، بـفـضـلـ اـسـتـثـمـارـ مـنـاجـمـ الـمـعـادـنـ الـثـمـيـنـةـ الـتـيـ كـانـتـ ذاتـ غـنـىـ خـارـقـ الـعـادـةـ . وـلـكـنـ الـاـفـادـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـنـاجـمـ كـانـتـ تـتـطـلـبـ يـدـاـ عـامـلـةـ . وـكـانـ الـهـنـودـ يـهـلـكـونـ ، بـصـورـةـ جـمـاهـيرـيـةـ ، بـسـبـبـ الشـروـطـ غـيرـ الـاـنـسـانـيـةـ الـتـيـ كـانـوـاـ يـعـمـلـوـنـ فـيـهـاـ . فـنـظـمـ التـجـارـ الـاـوـرـوـبـيـوـنـ صـيـدـ

(١) - لـينـينـ : الـبرـنـامـجـ الزـرـاعـيـ لـلـاـشـتـراكـيـةـ الـدـيمـوقـراـطـيـةـ فـيـ الشـوـرةـ الـرـوـسـيـةـ الـاـوـالـيـ (١٩٠٥ - ١٩٠٧) ، صـفـحةـ ٧٣ ، دـارـ النـشـرـ بـالـلـفـانـ الـاجـنبـيـ ، مـوسـكـوـ ١٩٥٤ـ .

الزنوج في افريقيا كما يفعل بالبهائم البرية . وكان الاتجار بنزوج افريقيا الذين فرض عليهم الرق من اجل التجارات ربحا . فكان النخاسون يحققون ارباحا اسطورية . وانتشر عمل الرقيق الذي كان يقوم به الزنوج انتشارا كبيرا في مزارع القطن الاميركية . كذلك كانت **التجارة مع المستعمرات** مصدر ثروات ضخمة . وقد أسس تجار هولندا وإنكلترا وفرنسا شركات الهند الشرقية للاتجار مع الهند . وكانت هذه الشركات تنعم بتأييد حكوماتها ، فاحتكرت المتاجرة بمنتجات المستعمرات ونالت حق استثمار هذه المستعمرات بدون أي قيد ، وكانت تستخدمن ابشع وسائل العنف والشدة . وكانت ارباحها السنوية تزيد عن الرأسمال الموظف عدة مرات . وفي روسيا كان التجار يحققون ارباحا ضخمة عن طريق التجارة مع سيبيريا ، حيث فرضت على السكان قوانين صارمة ، وعن طريق التزام المواد الكحولية التي كانت الدولة تمنع بعض المتعهددين حق انتاجها وبيعها شرط ان يدفعوا رسما معينا .

هكذا جمع الرأسمال التجاري والرأسمال الربوي ثروات نقدية هائلة .

وهكذا ، من نهب جماهير المنتجين الصغار وافقارهم ، تراكمت الموارد النقدية الضرورية لخلق المؤسسات الرأسمالية الكبرى . وقد كتب ماركس محللا لهذا التطور فيبين ان الرأسمال يأتي الى هذا العالم « وهو ينضح دما ووحلا من جميع مسامه » (١) .

انتفاضات الاقنان . الثورات البورجوازية . سقوط النظام الاقطاعي

استمر نضال الفلاحين ضد الاسياد الاقطاعيين طوال العصر الاقطاعي ، الا انه بلغ ذروة الاحتدام في نهاية ذلك العصر .

(١) - ماركس : الرأسمال ، الكتاب الاول ، الجزء الثالث ، ص ٢٠٢ .

كانت فرنسا في القرن الرابع عشر مسرحاً لحرب فلاحين عرفت في التاريخ باسم الحركة «الجاكيه»^(١) . وقد دعمت البورجوازية الناشئة في المدن هذه الحركة في بادئ الامر ولكنها تخلت عنها في اللحظة الخامسة . واندلعت في قسم كبير من انكلترا انتفاضة فلاحين في اواخر القرن الرابع عشر . وقد انتشر الفلاحون المسلحون في ارجاء البلاد بقيادة واث تايلر ، فكانوا يحطمون منازل الاقطاعيين والاديرة ، وقد استولوا على لندن . وتمكن الاقطاعيون بالعنف والخداع من خنق الانتفاضة وقتل تايلر بالخيانة . فقد وثق الثائرون بوعود الملك والاسيدات الاقطاعيين وعدوا الى بيوتهم ، وعلى الاثر جردت على القرى حملات تأديبية نكلت بالفلاحين تنكيلاً وحشياً .

وفي اوائل القرن السادس عشر نشب في المانيا حرب فلاحين بقيادة توماس مونزر ، وكان يدعهمها الفقراء من سكان المدن . وكان الفلاحون يطالبون بأن يكتف النبلاء عن الاستبداد واعمال العنف .

ولنذكر في روسيا حروب الفلاحين الكبرى بقيادة اسطفان رازين في القرن السابع عشر واميليان بوغاتشيف في القرن الثامن عشر . وقد طالب الثائرون بالفاء القنانة وتسلیم اراضي النبلاء والدولة للفلاحين وانهاء التسلط الاقطاعي . وفي ما بين ١٨٥ و ١٨٦ تجلی تفاقم ازمة النظام الاقتصادي الاقطاعي في موجة عارمة من انتفاضات الفلاحين قبيل اصلاح ١٨٦١ .

وخلال قرون متطاولة في الصين نشب حروب وانتفاضات فلاحية اتسعت اتساعاً لا مثيل له . فان انتفاضة التایپنگ ، في عهد سلالة التسنغ (اواسط القرن التاسع عشر) قد حركت ملايين من الفلاحين . واحتل الثائرون نانجين العاصمة القديمة للصين . واعلن قانون التایپنگ الزراعي المساواة في الحقوق ، والتمتع بالأراضي والخيرات الاخرى . وكان تنظيمهم السياسي يجمع بطريقة فريدة بين النظام الملكي والديمقراطية الفلاحية ، وهذه ميزة نراها ايضاً في حركات الفلاحين في البلدان الاخرى .

ان انتفاضات الفلاحين ذات اهمية ثورية لأنها زعزعت اسس

(١) - بالفرنسية Jacques Jacquerie ، من كلمة

التي كانت لقباً يطلق على الفلاحين في فرنسا . نشببت الحركة في ٢٨ أيار ، عام ١٣٥٨ - هيئة التعریب .

الاقطاعية ذاتها وآلت في النهاية إلى الغاء القناة .

تم الانتقال من النظام الاقطاعي إلى الرأسمالية في أوروبا الغربية بفضل **الثورات البورجوازية** . فقد افادت البورجوازية الصاعدة من نضال الفلاحين ضد الاقطاعيين للتعجيل في القضاء على النظام الاقطاعي والبدال الاستثمار الاقطاعي بالاستثمار البورجوازي وللاستيلاء على الحكم . لقد قدم الفلاحون خلال الثورات البورجوازية القسم الأكبر من القوى التي قلبت النظام الاقطاعي . هكذا كانت الحال خلال الثورة البورجوازية الأولى التي جرت في البلاد الواطئة في القرن السادس عشر ، وكذلك كانت الحال ، خلال الثورة الانكليزية في القرن السابع عشر وخلال الثورة البورجوازية في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر .

استأثرت البورجوازية بثمرات النضال الثوري الذي خاضه الفلاحون ، وصعدت إلى الحكم على اكتافهم . كانت قوة الفلاحين كامنة في حقدتهم على ماضطهديهم . ولكن انتفاضاتهم كانت عفوية . فإن الفلاحين ، بوصفهم طبقة الملاكين الفردية الصغار ، كانوا مجزئين . فلم يكن بوسعيهم أن يصوغوا برنامجاً واضحاً ولا أن ينشئوا منظمة متينة متماسكة لاجزاء لخوض النضال . ان انتصار انتفاضات الفلاحين يتطلب أن تندمج هذه الانتفاضات بحركة العمال . وان تكون بقيادة العمال . ولكن ، في أيام الثورات البورجوازية في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، كانت طبقة العمال ما تزال ضعيفة وقليلة العدد وغير منظمة .

في قلب المجتمع الاقطاعي ذاته ، نضجت اشكال النظام الرأسمالي المتكاملة نوعاً ما . فقد كبرت طبقة مستثمرة جديدة ، هي طبقة الرأساليين ، وظهرت في الوقت نفسه جماهير من الناس المجردين من وسائل الانتاج ، هم البروليتاريون .

في عصر الثورات البورجوازية ، استخدمت البورجوازية ضد الاقطاعية قانون المطابقة الضرورية بين علاقات الانتاج وطبيعةقوى المنتجة . فقلبت علاقات الانتاج الاقطاعية واقامت علاقات انتاج جديدة ، علاقات بورجوازية ، ووفقت بين علاقات الانتاج

و طبيعة القوى المنتجة التي تطورت في حضن النظام الاقطاعي . لقد قضت الثورات البورجوازية على النظام الاقطاعي و اقامت سيطرة الرأسمالية .

المفاهيم الاقتصادية في العهد الاقطاعي

ان المفاهيم الاقتصادية في العهد الاقطاعي هي انعكاس للعلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك . كانت الحياة الفكرية كلها باشراف رجال الدين . ولهذا كانت ترتدي ، بوجه غالب ، شكلًا دينياً وشكلاً مدرسيًا (سكونو لاستيك) . ولذلك ، كانت الدراسات عن الحياة الاقتصادية تشكل فصولاً خاصة من كتب اللاهوت .

تأثرت المفاهيم الاقتصادية في الصين خلال أجيال بمنصب كونفوشيوس . ولد منصب كونفوشيوس ، فكرة دينية في القرن الخامس قبل عصرنا . يفرض هذا المنصب المحافظة الدقيقة على التسلسل الاقطاعي بين الطوائف في النظام السياسي وفي الأسرة . يقول كونفوشيوس : « على الجهلة أن يطيعوا النبلاء والحكماء . فإن عدم خضوع الناس الصغار للسلطة العليا هو أساس الفوضى » . إلا أن كونفوشيوس طلب من الناس « الكريمي الارومة » أن يبرهنو على « الإنسانية » وأن لا يكونوا فساة كثيراً مع الفقراء . وكان كونفوشيوس يدعوا إلى ضرورة توحيد الصين المجزأة آنذاك ، وجعلها رهن حكم ملك واحد . ويشيد كونفوشيوس وتلاميذه بأشكال الاقتصاد المتأخرة . فهم يمجدون « العصر النبوي » الذي يمثله عندهم الماضي البطريركي . وكان الفلاحون الراذحون بنسخ الإستقرائية الاقطاعية والتجار يعتقدون آمالهم على المنصب الكونفوشسي لصلاح وضعهم ، على الرغم من أن هذا المنصب لم يكن يعبر عن مصالح طبقة الفلاحين . ثم أصبحت الكونفوشية ، خلال تطورها ، العقلية الرسمية للإستقرائية الاقطاعية ، واستغلتها الطبقات المتسلطة لتربية الشعب على روح الخضوع الذليل للسادة الاقطاعيين ، ولتخليد النظام الاقطاعي .

كذلك حاول القديس توما الأكويني (القرن الثالث عشر) ، أحد مفكري (1)

الاقطاعية في اوروبا الوسيطة ، ان يبرر ، بطريق اللاهوت ، ضرورة المجتمع الاقطاعي . لقد اعلن جهارا ان الملكية الاقطاعية ضرورية ومحقولة وان الانسان عبيد ارقاء ، الا انه ، على عكس انصار نظام الرق في العصور القديمة ، اكد ان « العبد حر بالروح » وبالتالي ، لا يحق لسيده ان يقتله . ولم يعتبر العمل انه غير لائق بالرجل الحر . ولكن العمل اليدوي ، في نظره ، نشاط من نوع ادنى ، والعمل النهني شغل نبيل . وهو يرى في هذا التمايز اساس تقسيم المجتمع الى درجات مختلفة . وكانت اراوه عن الثروة مستوحاة من هذه النظرة التي تقسم الناس الى طوائف اجتماعية . فالانسان ينبغي ان يحوز من الثروة ما يخوله اياه المركز الذي يشغله في التسلسل الاقطاعي . والامر الشديد الدلالة ، في هذا الباب ، هو نظرية اللاهوتيين في القرون الوسطى عن الثمن « العادل » . فالثمن « العادل » ، في نظرهم ، ينبغي ان يتلاءم مع كمية العمل المبذولة لانتاج الشيء ، ومع وضع المنتج الاجتماعي .

ولا يبدي انصار الثمن « العادل » اي احتجاج على ربح التجار . وجل ما كانوا يريدون هو تعين حدود لهذا الربح لكي لا يفسد الكيان الاقتصادي للفئات الاخرى . وكانوا يشجبون الربا لانه شائن ومناف للأخلاق . ولكن مع تطور الانتاج البصاعي والتبادل ، اخذ رجال الدين انفسهم يزاولون الربا الذي راحت الكنيسة تبدي التساهل حياله اكثر فأكثر .

اتخذ النضال الطبقي الذي كانت تخوضه الجماهير المضطهدة ضد الطبقات المسيطرة في المجتمع الاقطاعي ، شكلًا دينيا طوال عدة قرون . فكان الفلاحون والصناع المستثمرون ، يستشهدون غالبا بنصوص من التوراة لدعم مطالبهم . وقد ظهرت فرق دينية عديدة وانتشرت انتشارا واسعا . وكانت الكنيسة الكاثوليكية وديوان التفتيش يضطهدان « الهرطقة » بمنتهى القسوة ، ويرسلانهم الى المحرقة .

ومع تطور النضال الطبقي ، اخذت حركة الجماهير المضطهدة تتخلص ، بصورة مطردة ، من غلافها الديني ، ثم رسخت صفتها الثورية بأكثر وضوحا . واخذ الفلاحون يطالبون بالفاء القنانة والامتيازات الاقطاعية ، وبالمساواة في الحقوق وبمحو التقسيم الى درجات .

وقد اتخذت شعارات الثائرين ، خلال حروب الفلاحين في انكلترا وبولندا والمانيا ، صفة جذرية اكثر فأكثر . وعبرت الجماهير المستمرة في الريف

والمدينة عن طموحها الى المساواة في المطالبة بمساعدة الخيرات ، اي بالمساواة في موضوع الاستهلاك . لقد كان هنا المطلب غير ممكن التحقيق ، ولكن كانت له في ذلك العهد اهمية كبرى ، لانه كان يحفز الجماهير الى النضال ضد الاوضطهاد الاقطاعي .

ولما أخذ العهد الاقطاعي يميل الى الافول ، ظهر الاشتراكيان الخياليان الاولان الكبيران : الانكليزي توماس مور ، مؤلف *انطوبياته* (القرن السادس عشر) ، والايطالى توماسو كامبانيلا ، الذي كتب قصة *مدينة الشمس* (القرن السابع عشر). لقد شهد هذان المفكران ما هنالك من عدم مساواة ومن تناقضات متزايدة في المجتمع في زمانهما ، فأبديا ، بشكل فريد ، آراءهما وأفكارهما حول سبب الشرور والآلام التي يعانيها المجتمع ، وأبرزتا صورة لنظام امثل في نظرهما ، تمحي منه جميع تلك الشرور والآلام .

ان النظام الاجتماعي الذي ينشدanh لا يعرف الملكية الخاصة ولا الرذائل التي تنجم عنها . وكل انسان في هذا النظام هو صاحب حرفه وزارع معا . ويوم العمل ست ساعات ، حتى وأربع ساعات . وهذا الوقت كاف تماما لسد جميع الحاجات . وتتوزع المنتجات حسب الحاجة ، ويعهد الى المجتمع بتنقيف الاولاد .
تعتبر مؤلفات مور وكمبانيلا دورا تقدimيا في تاريخ الفكر الاجتماعي . فقد تضمنت افكارا متقدمة جدا على زمنهما . الا ان هذه الافكار كانت غير قابلة للتحقيق ، كانت افكارا خيالية ، لانها استقطت من الحساب قوانين التطور الاجتماعي . فلم يكن بالامكان القضاء على التفاوت الاجتماعي آنذاك : لقد كان مستوى القوى المنتجة في ذلك الوقت يتطلب ان يفسح الاستثمار الاقطاعي المكان للاستثمار الرأسمالي .

يرجع ظهور الرأسمالية الى القرن السادس عشر . وفي هذا العهد ايضا جرت المحاولات الاولى الرامية الى تأويل وتفسير بعض الظاهرات الخاصة بالرأسمالية . وهكذا نشأ وتطور، خلال المرحلة الممتدة من القرن السادس عشر الى القرن الثامن

عشر ، تيار الفكر الاقتصادي والسياسة الاقتصادية ، الذي اطلق عليه اسم **المذهب التجاري** (١) .

ولد هذا التيار في إنكلترا ثم امتد إلى فرنسا وإيطاليا والبلدان الأخرى . وكان يضع على بساط البحث قضية الثروة القومية واسكالها وطرق انمائها .

كان ذلك في المرحلة التي هيمن فيها الرأسمال ، بشكله التجاري والربوي ، على التجارة والقروض . ولم يكن قد خطأ إلا خطواته الأولى في الانتاج ، عندما أسس المشاغل (٢) . وبعد اكتشاف أميركا وغزوها ، تدفقت المعادن الثمينة على أوروبا . وكانت الحروب والتجارة تؤدي ، بشكل مستمر ، إلى إعادة توزيع الذهب والفضة بين الدول الأوروبية .

كان أصحاب المذهب التجاري يبنون مفهومهم عن طبيعة الثروة على تحليل ظاهرات التداول السطحية . فلم يكن انتباهم موجها إلى الانتاج بل إلى التجارة والتداول النقدي ، وخصوصاً إلى حركات الذهب والفضة .

فالثروة الحقيقة في نظر أصحاب المذهب التجاري ، ليس قوامها الانتاج الاجتماعي ، بل النقد : الذهب والفضة . وهم يطلبون أن تتدخل الدولة بهمة وحزم في الحياة الاقتصادية لتعمل بشكل يؤدي إلى تدفق أكبر قدر ممكن من النقود على البلاد ، وإلى خروج أقل قدر ممكن منها . وقد حسبوا ، أول الأمر ، أن بلوغ ذلك يمكن أن يتم بحظر خروج النقد بواسطة تدابير إدارية بسيطة . ثم رأوا بعدها أنه من الضروري ، لتحقيق ذلك ، أن تتطور التجارة الخارجية . وعلى هذا كتب توماس مون (١٥٧١ - ١٦٤١) ، التاجر الانكليزي الفضم ومدير شركة الهند الشرقية قال : « إن الوسيلة العادية لزيادة ثروتنا وكنوزنا هي التجارة مع الخارج ، على أن تكون القاعدة الواجب اتباعها في هذا الباب ، هي أن نبيع بضائعاً ، كل سنة للجانب ، بمبلغ يفوق ما ننفقه للحصول على بضائعهم » .

كان أصحاب المذهب التجاري يعبرون عن مصالح البورجوازية التي كانت تنمو

mercantilisme - (١)

manufacture - (٢)

في حصن النظام الاقطاعي ، وتسعى ، بفروع صبر ، الى تكديس الثروات بشكل ذهب وفضة ، عن طريق تطور التجارة الخارجية ، ونهب المستعمرات ، وشن حروب تجارية ، واستعباد الشعوب المختلفة في تطورها . ومع تقدم الرأسمالية ، طلب أصحاب المذهب التجاري من الدولة ان تحمي تطور المؤسسات الصناعية وهي المشاغل . وقد منحت جوائز تصدير الى التجار الذين يبيعون بضائعهم في الخارج . وازدادت ، اثر ذلك ايضا ، اهمية رسوم الدخول . ومع اتساع المشاغل ، ومن بعدها المعامل ، أصبح فرض الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة هو التدبير الذي يلجأ اليه غالبا لحماية الصناعة الوطنية من المزاحمة الاجنبية .

وهذا ما يسمونه نظام الحماية ، وهو سياسة استمرت في بلدان عديدة حتى بعد التخلص عن نظريات المذهب التجاري بزمن طويل .

وقد لعبت تعرفات الحماية في انكلترا دورا هاما في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، عندما كان الهدف هو التخلص من مزاحمة المشاغل التي كانت اكثر تطورا في البلاد المنخفضة . وقد ضمنت انكلترا لنفسها التفوق الصناعي ، بصورة ثابتة ، منذ القرن الثامن عشر . ولم يبق بمستطاع البلدان الاخرى المختلفة عنها في ميدان التطور ان تنافسها . ولذا بدأت فكرة التبادل الحر تظهر الى المسرح في انكلترا .

على ان الامر كان على خلاف ذلك في البلدان الاخرى التي سلكت سبيل الرأسمالية بعد انكلترا . وفي فرنسا عمل كولبيير ، وزير لويس الرابع عشر ، الى تشجيع المشاغل بمجموعة كاملة من تدابير الحماية : كالرسوم الجمركية المرتفعة ، وحظر تصدير المواد الاولية ، وإنشاء صناعات جديدة ، وتأسيس شركات للتجارة الخارجية الخ . . .

لقد لعب المذهب التجاري دورا تقدميا في ذلك العصر . فان سياسة الحماية التي اوحى بها ادت الى انتشار المشاغل انتشارا هاما . ولكن نظرية المذهب التجاري عن الثروة كانت تعبيرا عن ضعف تطور الانتاج الرأسمالي . وقد أظهر تقدم الرأسمالية ضعف هذه النظرية ، بمزيد من الوضوح .

اصبح النظام الاقطاعي هو النظام الفالب على روسيا في

القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان الاقتصاد بمعظمه اقتصاداً طبيعياً . ومع ذلك ، تطورت التجارة والصناعة الحرفية تطورة ملحوظاً ، وقامت سوق وطنية ، وتأسست مشاغل ، وقد أسهمت هذه التبدلات في تقوية الحكم المطلق .

طور الاقتصاديون الروس بعض الافكار الخاصة بالذهب التجاري ، مع اخذ خصائص البلاد التاريخية والاقتصادية بعين الاعتبار . على انهم ، خلافاً لکثير من اصحاب الذهب التجاري في اوروبا الغربية ، كانوا يعتقدون اهمية كبرى لا على التجارة فحسب بل على تطور الصناعة والزراعة ايضاً .

ان المفاهيم الاقتصادية في ذلك العصر ، هي التي اوحت بمؤلفات وافعال آ. ل. اوردين ناشتشوگين ، من رجال الدولة الروس في القرن السابع عشر ، وهي التي اوحت بسياسة بطرس الاكبر الاقتصادية وبمؤلفات ي. ت. بوسوشكوف، ابرز الاقتصاديين الروس في اوائل القرن الثامن عشر .

يعرض بوسوشكوف، في كتابه حول **الفقر والغنى** (1724)، برنامجاً واسعاً لتطوير روسيا الاقتصادي ، ويررره بشكل مفصل . فهو يبرهن في هذا البرنامج على ضرورة تطبيق عدد من التدابير لحماية الصناعة الوطنية والتجارة والزراعة ، ولاصلاح النظام المالي .

ومنذ الثالث الاخير من القرن الثامن عشر ، اخذ يرتسم في روسيا اتجاه نحو تفكك العلاقات القائمة على الاقطاعية والقنانة . وقد اشتدت هذه النزعة خلال الرابع الاول من القرن التاسع عشر وآل الى ازمة حقيقة في نظام القنانة .

كان آ. ن. راديشتشيف (1749 - 1802) ، الذي بعث الاتجاه الديموقراطي الثوري في التفكير الاجتماعي الروسي ، كان اقتصادياً بارزاً . لقد شن حملة قوية على القنانة ودافع دفاعاً مجيداً عن الفلاحين المضطهدرين ، وسلط على النظام الاقطاعي نقداً

لا هوادة فيه ، وفضح الاستثمار بوصفه مصدر ثروات الاسياد الاقطاعيين واصحاب المشاغل والتجار ، وأعلن ان الارض يجب ان تكون ملكاً لمن يعمل فيها . وكان مؤمناً بان الثورة هي التي يمكن فقط ان تقضي على الحكم المطلق والقنانة . وقد اقترح تطبيق مجموعة من التدابير الاقتصادية التي كانت تقدمية بالنسبة لذلك الزمن ، وكان من شأنها ، اذا طبقت ، ان تؤدي الى قيام نظام بورجوازي ديموقراطي في روسيا .

كان الدسمبريون (1) (الربع الاول من القرن التاسع عشر) ثوريي العصر الذي بدأ فيه الشعور بضرورة ابدال النظام الاقطاعي بالرأسمالية في روسيا . وكان انتقادهم موجهاً ، قبل كل شيء ، ضد القنانة . لقد كانوا يحملون بحماسة لواء تطور القوى المنتجة في روسيا ، ويرون في محو القنانة ، وتحرير الفلاحين ، الشرط الرئيسي لهذا التطور .

ولم يكتفوا بالدعوة الى النضال ضد نظام القنانة والحكم الفردي ، بل نظموا عصياناً ضد الملكية المطلقة . ويعود الفضل الى ب.و.ي. بستن (1793 - 1826) في وضع مشروع فد لتسوية القضية الزراعية . وكان المشروع الذي وضعه للدستور ، بعنوان **الحقيقة الروسية** ينص على تحرير الفلاحين تحريراً كاملاً فورياً كما ينص على اتخاذ تدابير اقتصادية لحماية مصالحهم في المستقبل . وفي سبيل هذه الغاية ، دعا الى انشاء احتياط اجتماعي من الاراضي ، يستطيع كل فلاح ان يأخذ منه بالمجان الارض التي يحتاج اليها للقيام باوده . ويجب ان يتالف هذا الاحتياط من اراضي طبقة النبلاء واراضي الدولة ، على اعتبار ان قسماً من اراضي اغنى الاقطاعيين يؤخذ منهم بدون تعويض . كان الدسمبريون ثوريين متحدرين من طبقة النبلاء ، ولذلك كانوا بعيدين عن الشعب . ولكن نضالهم ضد القنانة دفع الحركة الثورية في روسيا الى امام .

مع تفكك النظام الاقطاعي وموالى الرأسمالية ، تكونت عقليّة البورجوازية التي كانت تسير الى الاستيلاء على السلطة . وكانت هذه العقلية موجهة ضد النظام الاقطاعي وضد الدين ، سلاح الاقطاعية الروحي . ولهذا نرى عند البورجوازية المناضلة في سبيل الاستيلاء على السلطة مفهوما عن العالم يرتدي صفة تقدمية في جملة من البلدان . وقد سلط ابرز ممثليها ، من اقتصاديين وفلسفه ، نقدا لا هواة فيه ضد اسس المجتمع الاقطاعي الاقتصادية والسياسية والدينية والفلسفية والخلقية . ولعبوا دورا هاما في تهيئة الثورة البورجوازية من الناحية الفكرية ، وأثروا تأثيرا مثمرا على العلوم والفنون .

تم طبع هذا الكتاب
في مطبعة النجاح
بـ ١٩٥٩ - بيروت

مطبعة النجاح - بيروت

الثمن : ليرة لبنانية
او ما يعادلها